دور الليتورجية
في وضع الأساس اللاهوتي الشرقي

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٢

جدول المحتويات

مقدمة عامة ٤

الفصل الأول: المنهج اللاهوتي الشرقي كما تقدِّمه الليتورجية القبطية ٥

القديس أثناسيوس، ومنهج الليتورجية القبطية..... ٥

الدلالة الواضحة لمنهج الليتورجية القبطية..... ٩

الفصل الثاني: المنهج اللاهوتي بين الرعاة والفلاسفة..... ١١

لاهوت العصر الوسيط ولاهوت الآباء..... ١١

الفصل الثالث: كيف تشرح الليتورجية، العقيدة الأرثوذكسية؟..... ١٤

الفصل الرابع: منهج الليتورجية القبطية، ومنهج اللاهوت المدرسي ١٦

مقدمة ١٦

منهج اللاهوت المدرسي ١٧

منهج لاهوت الآباء ١٩

الممارسة الكنسية هي أول درس في العقيدة الأرثوذكسية ٢٢

الليتورجيا هي استعلان الإيمان كممارسة ٢٥

ما الذي تحرص عليه الصلوات؟ ٢٦

الدروس العقائدية التي يجب أن نتعلمها من صلوات القسمة ٢٨

الفصل الخامس: الوجود الكوني للمسيح يسوع

في التسبيح المسمى بـ (الإبصاليات) ٣١

أولاً: البنية اللغوية للإبصاليات..... ٣١

ثانياً: اسم ربنا يسوع وسر الإفخارستيا ٣٢

ثالثاً: اسم الرب والروح القدس ٣٣

رابعاً: اسم الرب يسوع مفتاح الأسفار ٣٥

خامساً: اسم الرب يسوع وتدبير الخلاص..... ٣٦

سادساً: إبصالية يوم الصلبوت، وعلامة الصليب ٣٧
لا خوف من الشياطين ٣٩
المسيح رأس الخلاص العظيم Nκεφαλεον Oυnιϣ† ٤٠
الابصاليات كمنهج لاهوتي كامل، ومناهج التربية الكنسية ٤٢
الفصل السادس: التجسد الإلهي الذي أعلن لنا كل شيء ٤٤
الترتيب حسب التدبير ٤٤
الترتيب حسب التدبير يفصل بين العهدين ٤٦
النور غير المقتَرَب منه ٤٨
أشرق جسدياً من العذراء بغير زرع بشر لكي يخلصنا ٤٨
بإرادته ومسرة أبيه والروح القدس أتى وخلَّصنا ٥٠
تطلع الآب من السماء فلم يجد من يشبهك: "أرسل وحيده أتى وتجسد منك" ٥١
التسبيح ليس مجرد شكر وحمد، بل هو شركة أيضاً ٥٢
ما هو هذا الواقع الحي الذي تشير إليه الصلوات؟ ٥٢
ثيئوطوكية السبت، وثيؤطوكية الأحد ٥٥
الفصل السابع: الشركة التي تسبق الكلمات ٥٧
النَّص والإنسان ٥٨
الكلمة قدَّس الجسد الإنساني الذي أخذه من القديسة مريم ٥٩
الليتورجية أساسها في اتحاد اللاهوت بالناسوت، وهو ما سبق اللفظ ٦٠
أبناء الجسد وأبناء الملكوت ٦٢

مقدمة عامة

كان كتاب "المبادئ" للعلَّامة أوريجينوس هو أول كتاب في اللاهوت يُكتب في المسيحية شرقاً وغرباً. وكما نعلم أن هذا الكتاب، كُتِبَ – بشكلٍ خاص – إلى المثقفين من أبناء الإسكندرية الذين كانوا على معرفة بالفلسفة، فجاء هذا الكتاب فلسفياً؛ لأنه اغترف من الفكر اليوناني والتقليد الكنسي معاً، وصاغ التيارين معاً في وحدة فكرية تمنع فصل هذين العنصرين.

في مقابل ذلك، جاء كتاب "تجسد الكلمة" للقديس أثناسيوس لكي يصحح الأخطاء الفكرية التي وقع فيها العلامة أوريجينوس. ولذلك يبدأ القديس أثناسيوس شرحه لتجسد الكلمة بالخلق من العدم – أصل الشر – حاجة الإنسانية إلى فادِ ومخلص. وبذلك تم ضبط الاتجاه الفكري واللاهوتي على أساس العقيدة المسيحية باستبعاد الموضوعات الفلسفية تماماً، والاكتفاء بشرح العقيدة من خلال التقليد الكنسي.

ومشكلة الذين درسوا "تجسد الكلمة" هي مشكلة مزدوجة:

أولاً: لأنهم فصلوا الكتاب عن بيئة وحياة وتقوى الكنيسة في الإسكندرية.

وثانياً: لأنهم انكبُّوا بشكل واضح على تحليل النصوص في محاولة منهم لتحديد تاريخ كتاب تجسد الكلمة، وهكذا لم يلتفت هؤلاء الأساتذة إلى ثلاث حقائق أساسية، هي:

أولاً: استعانة القديس أثناسيوس بمنهج الليتورجية اللاهوتي.

ثانياً: اهتمام القديس أثناسيوس الفائق بشرح العقيدة المسيحية بطريقة "الرعاة"، لا بأسلوب "الفلاسفة"، ولذلك صار الكتاب يُعد أحد المصادر الأساسية لما يُعرف الآن باللاهوت الرعائي.

ثالثاً: اعتبر القديس أثناسيوس أن كتابة شرح للعقيدة هو الموضوع الأول، بل هو الأساس الذي يدور عليه الجدل حول العقيدة، ذلك أن شرح العقيدة هو ما يحدد اتجاه الدفاع عنها، وبالتالي فالذي يحصر مجالات الدفاع واتجاهه، هو العقيدة نفسها.

الفصل الأول

المنهج اللاهوتي الشرقي
كما تقدِّمه الليتورجية القبطية

القديس أثناسيوس، ومنهج الليتورجية القبطية

تبدأ الليتورجية بالخلق حسب شهادة كل النصوص القديمة السابقة على كتابة كتاب "تجسد الكلمة"، و"الرسالة إلى الوثنيين". وإذا كانت القصة القديمة صحيحة، وليست إحدى الروايات التي تُنقل عن القديس أثناسيوس، فهذه القصة تؤكد على الوعي الروحي والليتورجي للصبي أثناسيوس الذي قام بتعميد الأطفال على شاطئ بحر الإسكندرية، وهو ما حدد مصير حياته؛ لأنه نشأ وتربى في بيت أسقف الإسكندرية، وعاش حياةً كنسيةً جعلته يعرف الليتورجية قبل الفلسفة، ولذلك ليست هذه أحد المصادفات التاريخية.

وإيقاع الليتورجية — كما نعرف — يبدأ بعقيدة الخلق، وخلق الإنسان على صورة الله هو الذي استدعى تجسد الكلمة، وهو، أي الكلمة "صورة الله" فعلاً. ومن هذا نرى أن الخلاف بين كتاب "المبادئ"، وكتاب "تجسد الكلمة" مصدره الأساسي ليس فقط الابتعاد عن الفلسفة، وإنما اعتبار علاقة الإنسان بالله في الصلاة وفي الأسرار الكنسية هي علاقة كيانية بين الله "الأصل"، والإنسان "الصورة"، أو "المثال". وبالتالي أصبحت العقيدة المسيحية في جوهرها، ومن خلال هذا المنهج هي مدرسة صلاة وشركة في الحياة الإلهية من خلال تجسد الكلمة. وأصبح دور الصلاة أساسياً في تحديد الاتجاه الفكري واللاهوتي الذي يتبناه المسيحي، بل وفي رسم معالم المصير الأبدي للإنسان.

لماذا تبدأ الليتورجية بالخلق من العدم؟

الجواب – من خلال صلوات الليتورجية – يؤكد أن الإنسان في حالة نمو مطَّرد، وأنه في حقيقة الأمر لا يملك كيانه، بل يحتاج إلى الصلاة روحاً وممارسةً، بمعنى أن روح الصلاة هي طلب المعونة، والممارسة هي أن يصلي الإنسان.

الخلق من العدم يفرض على الإنسان ثلاث حقائق أساسية، هي:

أولاً: لا يملك الإنسان كيانه؛ لأن هذا الكيان مخلوق أتى من العدم، ويبقى في الوجود بفضل النعمة الإلهية.

ثانياً: جاء الإنسان من العدم، والذي يحفظه من العودة إلى العدم هو النمو المطرد نحو الأصل، أي الجابل أو الخالق.

ثالثاً: الصلاة ليست ترديداً لعباراتٍ أو جمل رغم أهمية العبارات، بل هي تحوُّل في كيان الإنسان يجد في الفكر أولاً وفي الكلمات ثانياً، وفي الرؤية الداخلية ثالثاً ما يُسمى عند الآباء ***Prayerfulness*** وهي حالة الانتباه الدائم التي تعبِّر عنها القوات السماوية أو الخليقة العليا التي تفوق الإنسان في الانتباه وليس في الكرامة أو النعمة.

ومن هنا جاءت الرؤية الليتورجية عن وحدة السماء والأرض بالكلمة كخالقٍ يجمع تحت رأسه أو سيادته ما في السماوات وما على الأرض (أف ١: ١٠)؛ لكي – من خلاله – تتّحد الخليقة في الصلاة والتسبيح، وتتعلم الخليقة منه هو أولاً، ومن بعضها البعض معنى التناغم لاكتشاف غاية الخلق. وهكذا نرى القوات السماوية في الليتورجية في أقدم النصوص المسيحية، وهو ما يؤكد ليس فقط مصالحة السماء والأرض، وإنما انضمام الخليقة المنظورة وغير المنظورة لرأسٍ واحد هو ربنا يسوع المسيح "الذي تخدمه كل القوات السماوية"، والذي يخدم هو الكل مقدِّماً نعمة الوجود ونعمة الحياة للخليقة وغارساً الرؤية الروحية للحق، أي الآب لأنه هو "نور جوهر الآب، ورسم أقنومه" (راجع عب ١: ٣)، وفيه يعلن الآب ذاته للخليقة، وهو التعليم الذي يستغرق كل فصول كتاب "تجسد الكلمة".

مما سبق يمكن أن نقول إن العلاقة التي لا يمكن فصلها بين الخلق والخلاص أو الفداء، هي علاقة تظهر بشكلٍ أساسي في الليتورجية التي تنقل لنا روح العهد الجديد

برمته، وتقدم لنا – في سهولةٍ ويسر – أسباب تجسد الرب وحياته الإلهية المتأنِّسة التي سكبها فينا بالكلمة وبالأسرار وبواسطة الروح القدس. لقد أعطت الليتورجية كل هذه الدعائم العقائدية للقديس أثناسيوس، فشَرَحَ الإيمان المسيحي على أساسها، وأعطى لنا أسباب تجسد الكلمة من واقع التعليم المسيحي الذي ساد مدرسة الإسكندرية الذي له بذورٌ واضحة عند كلٍ من أكليمنضس والعلَّامة أوريجينوس. ولكن هذه البذور لا تظهر بشكل كامل قبل أثناسيوس.

إن ما يمكن أن نؤكده هنا، هو أن فصل الخلق عن الفداء كان هو التحدي الأكبر الذي جاءت به البدع الغنوسية. ويعود هذا الفصل إلى ثنائية الخير والشر، وإلى ثنائية الله نفسه، إله الخير وإله الشر، وأيضاً ثنائية الخليقة، الخليقة الروحية الكاملة والخليقة المادية الشريرة. إننا لا يمكن أن ننكر أن الآباء الذين هاجموا الغنوسية مثل إيريناؤس وغيره قد عادوا إلى "قانون الإيمان"، أو قاعدة الإيمان ***The Rule of Faith*** والتي تقدِّم لنا الإيمان المسيحي والتعليم الرسولي في شكلٍ مختَصَر في بنود ثلاثة أساسية، وهي خاصة بالآب خالق كل الأشياء – وبالابن الوحيد المخلص – وبالروح القدس الذي به تتقدس الخليقة. لكن كما نعرف جميعاً أن قاعدة الإيمان هذه، أو قانون الإيمان كان قد وُلِدَ أصلاً داخل خدمة الليتورجية الخاصة بالمعمودية حسب شهادة كل المصادر القديمة السابقة على عصر أثناسيوس، وإن كانت الدراسات الحديثة التي تهتم بالنص منفصلاً عن البيئة التي ولد فيها، أهملت في تقديم المعلومات التاريخية التي تتيح لنا أن نرى في صلوات المعمودية نفسها وفي كتابات الآباء كيف تقدِّم هذه الصلوات الإيمان الرسولي في شكل طِلبات وتوسلات لا تشرح العقيدة، وإنما تقدِّمها على أنها علاقة جديدة أبدية جاءت من عند الله الآب ووُهِبَت بالابن الوحيد، وقُدِّمت لنا بالروح القدس.

ولأن الصلاة محصورة في التعليم الرسولي الخاص بالآب والابن والروح القدس، فقد استطاع الآباء صياغة "قاعدة الإيمان" من خلال هذه الصلوات وليس العكس. صحيح أن المسيحية استفادت من الديانة اليهودية التي صاغت قانون إيمانها بما يُعرف باسم "الشِّمع"، أي "اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا ربٌ واحد ... " (تث ٦: ٤)، ولكن لا يجب فهم "الشِّمع" بنفس الأسلوب والشكل الذي نفهم به "قانون الإيمان، أو قاعدة

الإيمان"؛ لأن الشِّمع وإن كانت تقال كصلاة، إلَّا أن "الشِّمع" كانت تستند حسب شرح علماء اليهود على دعامة أعظم، وهي "العهد". أمَّا "قاعدة الإيمان"، فهي تستند على العهد الجديد أو على علاقة الآب بالابن بالروح القدس. هذه العلاقة الإلهية هي التي أعطت لنا جوهر الصلاة وموضوعاتها؛ لأن الإنسان دُعيَ بالإنجيل (الخبر السار هو دعوة) لأنْ ينال عطية التبني، وبذلك صار شريكاً في علاقة أقانيم الثالوث، ودخل إلى الحياة الإلهية في عهد أبدي جعل إنكار أحد بنود الإيمان بمثابة إنكار للعهد نفسه.

وهكذا يقف المسيحي – حسب صلوات المعمودية – أمام الثالوث القدوس؛ لكي ينال هبة التبني، ولكي يتشبَّه بابن الله. ومن هنا جاءت فصول كتاب "تجسد الكلمة" مرتَّبةٌ على الأساس الطقسي الكنسي لكنيسة الإسكندرية كما نراه في "صلاة الصلح". والاسم نفسه (أي صلاة الصلح) جديرٌ بالاهتمام؛ لأنه يلخِّص موضوع الصلاة، ولأنه يشرح أساس "المصالحة" بين الله والإنسان على أساس أن الخلق لم يصل إلى غايته بسبب سقوط الإنسان، فجاء الابن الكلمة "الخالق الشريك"؛ لكي يجدد الإنسان و "يهدم" الموت ويبيده ويوحِّد السماء والأرض.

هذا في حقيقة الأمر هو قلب صلوات المعمودية، وهو بداية "الأنافورا"، وهو في نفس الوقت الموضوع الأصلي الذي يتناوله أثناسيوس في "تجسد الكلمة"، وبشكلٍ خاص في الفصول من ١ – ١٨. وإذا تم استبعاد الجوانب الجدلية الموجَّهة ضد الوثنيين واليهود لأمكننا استخلاص محتويات الليتورجية القبطية.

وهكذا أملت الطقوس والليتورجية على القديس أثناسيوس منهج شرح العقيدة. وجاءت الممارسة الكنسية لتؤكد أن الإنسان صورة الله، والمخلوق من أجل الشركة و"التأمل" في سر الوجود، أي الله، قد سقط، وجاء السقوط ضربةً دخل معها الموت والوجع والفساد الروحي والجثماني، وهو ما استدعى تدخل الخالق لكي "يجدد الإنسان" ورده إلى "رتبته الأولى"، ويدعِّمه بنعمةٍ أعظم من النعمة الأولى.

الدلالة الواضحة لمنهج الليتورجية القبطية

لم أشأ أن أدخل في مقارنات نصوص الليتورجية بما جاء في كتابات آباء الإسكندرية، وتركت دراسة هذا الجانب إلى القسم الثاني من هذه الدراسة. ولكننا هنا يجب أن ندرك أن منهج الليتورجية القبطية واضحٌ؛ لأن الصلاة والأسرار هي قاعدة السلوك الروحي والاجتماعي، فالإنسان الذي يصلي، إنما يجمع في كيانه علاقاتٍ متعددةٍ مع الخليقة ومع الله. هذه العلاقات تُوهَب كعطية من الله (هذا أحد جوانب الخلاص). ويحدد هذه العلاقات تجسد الرب وموته وقيامته. ويرسم غايتها الآب السماوي نفسه. وقد أسهمت الليتورجية القبطية في شرح وإظهار مكانة الخليقة عند الله وتجديدها، وعلاقة الخليقة بالمسيح.

هذه بالضبط هي موضوعات اللاهوت في التراث السكندري مأخوذةٌ من الليتورجية، ويبني حولها الآباء الشرح والدفاع عن العقيدة.

فنحن نرى علاقة الله مع الإنسان في المسيح في الصلاة، وفيما يحصل عليه الإنسان من نعمةٍ إلهيةٍ؛ لكي يؤهَّل لتجديدٍ شاملٍ لكل ما يمر به من علاقات. هذا الحرص على العلاقات المتعددة بين الإنسان والخليقة والله، هو ما يجعل من لاهوت الإسكندرية وليتورجيتها لاهوتاً رعائياً، حتى في القسم الدفاعي نفسه.

لقد وصفت المصادر الحديثة علم اللاهوت الرعائي على أنه علمٌ "عملي" يهتم "بالممارسة"، ويشرح بشكل "واقعي" احتياجات الإنسان، وكيف يلبي الله هذه الاحتياجات. ويمكننا هنا أن نرى تأثير علم النفس المعاصر والتربية على هذه النظرة، وهو في حد ذاته أمرٌ ممدوح ومطلوب، حتى لا ينعزل اللاهوت المسيحي عن الحضارة والتراث الفكري الإنساني. لكن لا يجب أن ننسى أن "الخلاص"، هو موضوعٌ عانى من المعاملة القاسية على أيدي أصحاب لاهوت العصر الوسيط ولاهوت عصر الإصلاح، حيث حصروا معنى الخلاص في الحصول على مغفرة الخطايا فقط. أمَّا في التراث الشرقي، فقد كانت نظرة الآباء للخلاص على أنه إعادة تجديد الوحدة بين الروح والجسد، الإنسان والبيئة، الإنسان والثقافة، الإنسان والعالم الروحي، الإنسان والمجتمع، كل ذلك من خلال

النمو والتطور الدائم نحو صورة المسيح.

كل هذا قد تلاشى في اللاهوت المدرسي، ولاهوت عصر الإصلاح واللاهوت الكاثوليكي، ولكنه عاد في العصر الحديث بفضل علوم النفس والتربية دون أي أساس لاهوتي. وهكذا صار واضحاً لنا الآن أن محور اللاهوت المدرسي الوحيد هو الخلاص من الخطية؛ لأنه لاهوت فلسفي عقلاني *Rational* يهتم بالمشاكل ويدرسها، ويغفل الصلاة والليتورجية؛ لأنه لاهوت دفاعي ينسى أن أساس العقيدة ليس هو الجدل والمشاكل التي تحتاج إلى حل، بل هو العلاقات الإلهية والإنسانية التي تنبع أصلاً من المسيح ومن علاقته بالآب وبالروح القدس.

إن صورة أو أيقونة المسيح في الليتورجية، نراها بشكل واضح كمعلِّمٍ وراعٍ ومخلِّصٍ، جاء ليدعو الإنسانيةَ إلى وليمةٍ أو عُرسٍ سماويٍ يُظهِر فيه محبته ودعوته العليا نحو التطور النهائي حيث تسكن الخليقة في المجال السمائي الذي يُعلَن لها الآن سرياً.

هذه الصورة تطالعنا بوضوح شديد، ونحن ندرس صلوات المعمودية وكتابات آباء الإسكندرية.

الفصل الثاني

المنهج اللاهوتي
بين الرعاة والفلاسفة

لاهوت العصر الوسيط ولاهوت الآباء

تبين لنا مما سبق كيف أن لاهوت الآباء كان لاهوتاً رعائياً. وهذا في حد ذاته يجعل منهج اللاهوت الرعائي مختلفاً عن منهج اللاهوت المدرسي، إذ لا يهتم الأول بالجدل ولا يهتم بالأسئلة الفلسفية التي تثار من آنٍ لآخر. هذا مرده الواضح إلى المنهج نفسه، وليس إلى الجهل والتعصب، طالما أن آباء الإسكندرية هم أول مَن قال للعالم كله إن الفلسفةَ هي خادمٌ أمين للاهوت. ولكن الفلسفة تختلف عن اللاهوت تماماً حسب شرح العلامة أوريجينوس نفسه، في أن الفلسفة لا ترى رداً مؤكَّداً على أسئلتها مثل خلود النفس والقيامة؛ لأن هذه الموضوعات تُعلَن من الله، ويعجز العقل البشري عن استيعابها، وهي قد أُعلِنَت الآن في المسيح. بل ويرى آباء الإسكندرية أن طبيعة تكوين العقل البشري لا تسمح له بأن يرى ما لا يمكن رؤيته أو إدراك ما لا يمكن إدراكه، وهذه القضية تبدو لأول وهلة سهلةً. فالعجز عن الفهم والإدراك ليس مشكلةً، ولكن الحقيقة الكامنة خلف هذه الفكرة هي أن النفس أو العقل مثل "مرآةٍ" تعكس للفهم كل ما يمكن أن يتكون على سطح هذه المرآة من صور ومقولات. هنا يلمس آباء الإسكندرية حقيقة جوهرية، وهي أن العقل – كمرآة – نابعٌ من حقيقة أخرى، وهي أن الإنسان صورة الله ومثاله، وبالتالي فهو – كصورة لله – يعكس ما يصل إليه من معرفةٍ وفهم. ولما جاء الابن الكلمة وجدد الإنسان، جدَّد عمل الحواس الإنسانية، وجدَّد الإدراك، وغرس

طاقاتٍ جديدةٍ للتأمل؛ لأن التجسد فتح إمكانية مقابلة الإنسان "في منتصف الطريق"، أي حسب كلمات القديس أثناسيوس أن ينزل الله بذاته، ويصبح تحت الحواس حتى يمكن للإنسان أن ينال المعرفة التي تقع خارج إطار الحواس وقدراتها، وبذلك يتطور إدراك الإنسان من تناول الأمور الحسية إلى رؤية ما هو غير محسوس، ومن معرفة الكلمة المتجسد في النفس والجسد اللذان أخذهما من العذراء إلى معرفة الآب. وإذا كنا قد رأينا هذا في الليتورجية، فلا داع لأن نكرر ما سبق أن ذكرناه سابقاً، وهو أن الإنسان – كصورة لله – يدرك الروح من خلال المادة، ويفهم الخليقة أولاً قبل أن يفهم أمور الله.

وقد دخل هذا المنهج الحياة النسكية، فصار "الهذيذُ"، أو تأمل الكون والتسبيح هو الدرجة الأولى في الرؤية، أو هو "الثاؤريا" الأولى. ودور كنيسة الإسكندرية هنا ظاهرٌ تماماً. هذا التحول في المعرفة يعتمد أصلاً على الليتورجية؛ لأن الليتورجية، وهي تبدأ بما يراه الإنسان ويعرفه، ترتفع بالإنسان لكي تغرسه في الأسرار الفائقة. وبذلك تكون الإسكندرية قد قدمت للعالم المسيحي المنهج الروحي الذي صار بعد ذلك دعامة الحياة النسكية في الغرب، عندما نقل يوحنا كاسيان وغيره مبادئ وتعاليم آباء الإسكندرية إلى الغرب. لكن ما يجب أن نفهمه هنا هو أن الرعاية تزرع في الإنسان طلب المعرفة الذاتية والشخصية وتأمل الحقيقة قي داخل القلب وليس خارجه؛ لأن رؤية الله تبدأ برؤية العالم المحسوس، وهو الموضوع السهل الذي يتدرج نحو "السر" الفائق، أي الثالوث.

إذن، لاهوت الرعاية ودور الرعاة ليس مثل اللاهوت النظري الذي يقوم على دراسة مشاكل الفكر الإنساني، ويحاول البحث عن حلولٍ ممكنةٍ لها. اللاهوت في شكله القديم والرسولي هو "الصلاة بصوتٍ مرتفع"، وهي عبارة العلَّامة أوريجينوس التي نقلها عنه إيفاجريوس، فهو — أي اللاهوت القديم – لا يدرس مشاكل الفكر، وإنما يدرس كيف يستوعب الإنسان أولاً عطية الله، وكيف يفهم الشر، وكيف يجد في هذا الفهم الجواب على الأسئلة التي تثار وتطرحها الحضارة والثقافة.

هذا المنهج لم يصل إلى شكله الواضح إلَّا على يد أثناسيوس، وبفضل العودة إلى الليتورجية وإلى منهج الصلاة والتأمل، بعكس الدراسة الفلسفية والفكر النظري عند العلامة أوريجينوس.

من هذا نرى أن الرعاة هم "معلمو" الشعب، وأن الكنيسة ليست أكاديمية، وإنما هي حياة الجماعة التي يجد فيها البسطاء والحكماء معاً الشبع الروحي. لأن ارتفاع المعرفة من الحس إلى ما وراء الحس مرهونٌ بقدرات الإنسان وعمل النعمة الإلهية، وليس منهجاً أكاديمياً يمكن أن يصل إليه الإنسان بقراءة الكتب أو الاستماع إلى محاضرات. والتطور والنمو الروحي، إنما ترسم معالمه الليتورجية التي تترك باب الفهم مفتوحاً للبسطاء والحكماء معاً.

الفصل الثالث

كيف تشرح الليتورجية، العقيدة الأرثوذكسية؟

الصلاة – في أبسط أشكالها – هي توسلٌ وطلبٌ للحصول على ما لا يملكه الإنسان. وترتفع الصلاة من التوسل إلى الشكر على ما وصل من فهم وعطايا، حتى تدخل مجال العلاقة مع الله المثلث الأقانيم. ويلاحِظ كل مَن يدرس الليتورجية القبطية أنها تبدأ دائماً بالشكر وتمجيد الثالوث. وقد قال كل علماء الليتورجية في العصر الحديث إن هذا مأخوذٌ من خدمة "المجمع"، وخدمة "الهيكل" في العهد القديم، لكن ذلك لا يكفي، فالبحث عن الأصل وتطور الفكر لا يجب أن ينتهي في نهاية الأمر بتحديد المصدر، وإنما يجب أن يقودنا إلى اكتشاف الأسباب التي أدت إلى اختيار "الشكر" بالذات كبداية لكل صلاة وخدمة. ومع تنوع الخدمات الليتورجية القبطية، إلَّا أننا نستطيع أن ندرس في دقةٍ تامة ثلاث قضايا أساسية:

أولاً: الشكر على ما فعله المسيح، وما قام به من خلاص شامل.

ثانياً: الشكر على ما سيفعله الآن في الليتورجية.

ثالثاً: الشكر والتوسل لطلب تحول الكيان الإنساني إلى الخليقة الجديدة الآتية دائماً من الله في المسيح.

هذه العناصر الثلاثة هي قلب الليتورجية القبطية؛ لأنها تعتمد على ما جاء به تجسد الكلمة، وما علَّمه لنا وما أعلنه في ذاته من تحولٍ خطير في الكيان الإنساني، حيث يصبح الإنسان، وهو على الأرض "مواطناً سماوياً". لكن أهم ما يجب أن نلاحظه في هذه القضايا هو أن التحول في كيان الإنسان بدأ أولاً في المسيح، أي في تحول ناسوته إلى ناسوت غير مائت بالقيامة، وناسوت غير متألم بسبب اتحاده بلاهوت الكلمة،

وناسوت ينتمي إلى الحياة السماوية بفضل اتحاده بلاهوت الكلمة السمائي. وهذا التحول العجيب في كيان وناسوت الابن، جعل آباء الإسكندرية يرون في حياة المسيح على الأرض من الميلاد من القديسة مريم إلى المعمودية – التجلي – الموت – القيامة – الصعود، مراحلَ حياة ونمو علاقة الإنسان بالله. وهكذا تأسست الأعياد في السنة الطقسية، وتحوَّلت إلى مناسبات هامة للصلاة وتحوُّل الكيان الإنساني، ونمو هذا التحول من الميلاد في المعمودية إلى يوم الدينونة. هذا هو مثل نمو الجسد، فالإنسان ينمو إلى الكمال الجسداني عندما تكتمل أعضاؤه الإنسانية وتتوقف عند مرحلة ما بعد البلوغ. وعلى هذا النحو تنمو الحياة الإنسانية الروحية ولا تتوقف؛ لأنها تتجه دائماً إلى مجد المسيح القائم من بين الأموات.

الفصل الرابع

منهج الليتورجية القبطية، ومنهج اللاهوت المدرسي

مقدمة

كان القديس أغسطينوس هو آخر حلقات الاتصال بين الشرق والغرب، وترك مكتبةً لاهوتيةً كبرى تُعد من أكبر ما كُتِبَ في القرن الخامس الميلادي. وبعد وفاة أغسطينوس انقطعت هذه العلاقة، وتحول اللاهوت الغربي – في أكاديميات البحث التابعة للأديرة – إلى لاهوت تمايَز تماماً عن لاهوت الآباء، واختلف مع لاهوت الآباء في عدة أمور سوف ندرس منها ما يخصنا من موضوعات متصلة بهذا البحث.

جاءت كلمة *Scholastic* من الكلمة اليونانية — اللاتينية، وتعني المدرسة، أو الدراسة المنهجية. وتطورت الدراسات اللاهوتية بعد وفاة أغسطينوس بسبب الاهتمام الفائق بالفلسفة اليونانية بشكلٍ عام، وبفلسفة أرسطو بشكلٍ خاص. لقد حاول بعض أساتذة التاريخ تلخيص الفرق بين الشرق والغرب على أساس أنه فرقٌ بين منهج الأفلاطونية بمدارسها، ومنهج الأرسطاطولية. هذه دعوة على صوابٍ فقط فيما نحن بصدده، لكن هذا الوصف يجب أن يتناول جوهر الفروق غير الفلسفية، وهو ما يخصنا في هذا المجال.

منهج اللاهوت المدرسي

١- يقوم منهج اللاهوت المدرسي على اختيار أدق التعريفات *Definitions* قبل الدخول في مناقشة الموضوع.

٢- يحدد اللاهوت المدرسي الموضوع في شكل مشكلة قابلة للحل (الأسلوب الجدلي)، ويقدم الأدلة الثابتة والأدلة المضادة *Pros and Cons* التي تنتهي في النهاية إلى استبعاد *Paradox* تماماً حتى يصل الباحث إلى الرأي الأخير الذي لا يظهر فيه رائحة التناقض، أو التعارض مع ما سبق ودُرِسَ من موضوعات ذات صلة بالموضوع الأصلي.

ويمكننا أن نجمل مناحي القوة في اللاهوت المدرسي فيما يأتي:

١- الوضوح التام.

٢- خلق نظام متكامل يقوم على استبعاد كل القضايا التي تخلق *Paradox* وبالتالي أمكن تقديم اللاهوت المسيحي في شكل متكامل ومتوافق تجمعه هيكلية أو بنية *Structure* فلسفية.

أما مناحي الضعف، فقد ظهرت في استبعاد هذا الـ *Paradox* لأن هذا العنصر بالذات هو الذي يصون السر *Mystery* وبالتالي تحولت الأسرار إلى قضايا عقلية خاضعة للبحث الفلسفي وبأدواتٍ فلسفية مستعارة من أرسطو، وبذلك فقدت المسيحية في الغرب أحد أهم مميزات الحياة المسيحية، وهو الحس *Intuition* والرؤية *Mystical* التي ترتفع إلى ما هو فوق مقولات العقل، وصارت الأسرار، وهي الثالوث – التجسد – الصليب – القيامة – المعمودية – الإفخارستيا ...إلخ قضايا تخضع للتعريف الفلسفي اللفظي الذي يقوم على صياغة تامة محكمة. وقد خلق هذا في عصر الإصلاح وما بعده الدراسات التي تقوم على مقارنات النصوص وإخضاع الحقائق للنص أو استخلاص الحقائق من النص.

وكما هو معروفٌ لنا، وُلِدَ لاهوت حركة الإصلاح في بيت اللاهوت المدرسي، واستعان بدراسة النصوص، وفي مقدمتها الكتاب المقدس؛ لنقض لاهوت العصر الوسيط

الكاثوليكي. وقد حارب كلاهما الآخر بنفس السلاح، ولكن الجديد في لاهوت حركة الإصلاح، هو استخدام الكتاب المقدس كمصدر أول قادر على الحكم على التطور التاريخي لعقيدة الكنيسة الغربية.

ومن هنا نشأ التعارض بين الكتاب المقدس كما درسه قادة حركة الإصلاح، وتاريخ العقيدة المسيحية. وبعد ذلك جاء اللاهوت الكتابي *Biblical* لكي ينقد التراث الغربي كله.

هنا يجب أن نتوقف أمام ثلاث حقائق تاريخية هامة:

أولاً: لا تختلف الكنائس البروتستانتية مع الكنيسة الكاثوليكية حول قانون الإيمان، وبشكل خاص، عقيدة الثالوث ولاهوت الابن وتجسده وموته وقيامته ولاهوت الروح القدس.

ثانياً: يؤمن الكل في الغرب بذات الإيمان الواحد، ولكنهم يختلفون على الأسرار، وعلى عدد أسفار الكتاب المقدس.

ثالثاً: تختلف الكنائس البروتستانتية مع الكنيسة الكاثوليكية حول نتائج موت المسيح وقيامته، وعلاقة ما يعرف بعقيدة الفداء *Atonement* بالأسرار الكنسية *Sacraments*.

لقد تعمَّدْتُ أن أُبرز الأساس الواحد المشترك لكي يتمكن قارئ هذا البحث من اكتشاف حقيقة تاريخية هامة، وهي أن قبول قانون إيمان واحد لا يؤدي بالضرورة إلى وجود لاهوت سرائري *Sacramental* واحد، فكيف يمكن لنا أن نقيِّم هذه الحقيقة؟

الخلاف الغربي الكاثوليكي البروتستانتي يسمح باختلاف وجهات النظر حول بعض التفاصيل، ولكن يبقى الأساس والجوهر واحد لا خلاف عليه. والحقيقة التاريخية الظاهرة لنا هي أن لاهوت العصر الوسيط، أو المدرسي كان قد فصل بين الأسرار *Sacraments* والتجسد والصليب والقيامة والثالوث والكنيسة، وجاء هذا الفصل في كتابات العصر الوسيط السابقة لعصر حركة الإصلاح. ولم يكن طلاب اللاهوت وأساتذة اللاهوت على وعيٍ بأن هذا الفصل سوف يمهد لحركة الإصلاح نفسها، فقد اهتم الدارسون بالعقائد الكبرى، وهي الثالوث والفداء وتركوا العقائد الصغرى، وهي

الأسرار وباقي الموضوعات. هذا يجعلنا أما حتمية مراجعة المنهج نفسه، واكتشاف ليس التعارض فقط مع لاهوت الآباء، بل كيف تحول منهج البحث والدراسة نفسه إلى انقضاض على التراث المسيحي برمته، ومحاولة اكتشاف الصواب والخطأ فيه، دون العودة إلى "الاختبار الحي"، ودون إبراز دور صفاء النفس وتطور هذا الصفاء لرؤية الخلاص بشكل تام وكامل. ومع أن الأصوات التي ارتفعت تحذِّر، كانت مسموعةً مثل القديس برنارد وأكهارت والنُّسَّاك وقيادات رهبانية، إلَّا أن الأكاديميات كان لها اليد الطولى؛ لأنها كانت تمد الكنيسة بالقساوسة والأساقفة، وكان صوتها مسموعاً في مجالس الأمراء والنبلاء، وهم الذين قدَّموا – في إخلاصٍ – ما يملكون من الأموال للبحث والدراسة.

منهج لاهوت الآباء

تصوِّر الدراسات الآبائية التي نُشرت في الغرب في الحقبة الأخيرة التي تمتد من نهاية القرن الثامن عشر حتى أواخر القرن العشرين، الآباء على أنهم أساتذةُ لاهوتٍ في جامعاتٍ يحاضرون، بل تعمد البعض أن يطلق كلمات مثل محاضرات القديس كيرلس الأورشليمي عن الأسرار، أو موسوعة القديس أثناسيوس عن الروح القدس (رسائل أثناسيوس إلى سرابيون)، أو دائرة معارف الإيمان للقديس يوحنا الدمشقي (مئة مقالة عن الإيمان الأرثوذكسي). وهذه الأسماء تعكس ما ساد الفكر الغربي من رغبة في استيعاب لاهوت الآباء في إطار المنهج المدرسي، في محاول لإخضاع فكر الآباء ورؤيتهم للتحليل الفلسفي والنصي *Textual* حسب قواعد لاهوت العصر الوسيط. ويبحث الدارسون عن التعريفات *Definitions* وعن التناقض، ويشيرون دائماً إلى وجود تعارض *Paradox* بين ما يقدِّمه الآباء، وبين التعريفات، وبين الشواهد الكتابية وغيرها التي يقدمها الآباء كدليلٍ على إيمانهم.

وللرد على ذلك نقول إن الآباء لم يستخدموا الكتاب المقدس كمصدر للعقيدة إلَّا في حالات الدفاع أو الجدل مع الهرطقات. ما هو مصدر العقيدة؟ الجواب هو تجسد الابن الكلمة. فالتجسد هو الذي جعل الكتاب المقدس شهادةً إلهيةً، وجعل الإيمان بالوحي ممكناً؛ لأن النصوص النبوية الخاصة بهذا الحدث وبسبب تجسد الابن هي التي

أعطت للكتاب المقدس شرعيته. المسيح يسبق الكتاب المقدس في كونه ليس فقط الإله الأزلي، بل في كونه مصدر الحق، ومن هنا يلزمنا أن نميِّز بين نصوص الآباء الخاصة بالجدل مع الهرطقات والهراطقة، ونصوص الآباء التي تشرح الإيمان المسيحي وتقدِّم العقيدة. والفرق بين الشرح والجدل هو فرقٌ ضخم؛ لأن الشرح يتناول الممارسة، بينما يتناول الجدل والدفاع، التبرير وتقديم الحجة على صحة التعليم. والممارسة وصحة التعليم تخلق منهجين كلاهما يختلف عن الآخر تماماً، ذلك أن الممارسة هي تذوُّق داخلي ورؤية روحية صافية، أمَّا الدفاع فهي الحُجج العقلية التي يجمعها المدافع لدعم التعليم، وبالتالي هي الحجة الموجهة إلى الإدراك العقلي في محاولة لإقناعه، وليس إلى القلب (الحياة الداخلية كلها) لقيادته إلى مرتبة أعظم.

إن منهج لاهوت الآباء محصور في قاعدةٍ أو أساسٍ واحدٍ، وهو الخلاص:

١- فالخلاص هو سبب استعلان الثالوث، والخلاص هو سبب التمسك التام بوحدة جوهر الثالوث؛ لأن الخلاص هو عملٌ إلهي لا يمكن أن يقوم به إنسان، فهو من الناحية الخاصة بالخلق، مسئولية الخالق، ومن الناحية الخاصة بطبيعة الله، فهو "محب البشر"، وهذه المحبة الخاصة هي سبب خلق الإنسان على صورة الله ومثاله وهي النعمة التي أضيفت إلى نعمة الخلق (تجسد الكلمة ٣: ٣).

٢- والخلاص هو استعلان الله لرد الخليقة ودعمها بشكل يفوق ما أُعطي في الخلق الأول. وهكذا قسَّم العهد الجديد نفسه الخليقة إلى خليقتين: الأولى التي سقطت في آدم، والجديدة التي خلُصت في آدم الأخير يسوع المسيح، وهو محور الإصحاح ١٥ من الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس.

لهذا السبب لا يجب أن يختلط في أذهاننا أن الدفاع عن إلوهية الله الكلمة في المقالات الأربع ضد الأريوسيين هو خلافٌ بين اثناسيوس وأريوس حول تفسير هذا النص أو تلك الكلمات مثل (أم ٨: ٢٢) "الرب خلقني أول طرقه". هذا ما يبدو لعيني القارئ الذي غابت عنه الخلفية التاريخية والحياة الكنسية نفسها التي حفظت لنا هذه القاعدة.

Lex orandi, lex credendi.

"نحن نصلي ما نؤمن به، وما نؤمن به هو صلاتنا"[1].

فالدفاع عن الايمان ليس حواراً حول تفسير صحيح لكلمات الوحي المقدس، وإنما هو دفاعٌ عن علاقة الشركة الإلهية – الإنسانية التي جاء بها الكلمة المتجسد ابن الله، وإن كان ذلك لا يعني أنه ليس هناك حوارٌ حول معاني الكلمات واستخدام هذه الكلمات في العهدين، والمناسبة التي قيلت فيها عباراتٍ معينةٍ مثل "الرب خلقني في أول طرقه" (أم ٨: ٢٢). هذا الحوار موجودٌ بكل تأكيد.

فعندما يكتب أثناسيوس العظيم عن أن هذا الخلق خاصٌ بالخليقة الجديدة (٢كو ٥: ١٧-٢١)، فهو لم يكن مثل محاور يبحث عن مخرج، وإنما كان المحاور الذي يقف على أرضٍ أخرى غير تلك التي يقف عليها أريوس، واسمُ هذه الأرض "التدبير"، أي خطة الله للخلاص، وهي ليست خطة تقوم على لفظٍ أو نطق، بل على أعمال إلهية يقوم بها الله نفسه، ومن هنا جاء التأكيد على ارسال الابن الوحيد (يوحنا ٣: ١٦)، وعلى شركة الابن في اللحم والدم (عب ٢: ١٤)، وعلى تجسده (يوحنا ١: ١٤)، ومع هذا العمل الجديد، يجب قراءة كلمات العهدين بدقة تميِّز ما قيل وفي أية مناسبة، وهو ما يحدده القديس أثناسيوس بتعبيرين:

– التفسير الكنسي، أو بمزيد من الدقة: المعنى الكنسي للأسفار (ضد الأريوسيين ١: ٤٣).

– مجال الأسفار (ضد الأريوسيين ٣: ٢٨، ٢٩، ٣٥).

فالأول، وهو التفسير الكنسي، أي التفسير الذي يعطي لكل كلمات الكتاب المقدس الخاصة بالرب يسوع مجالين: الأول هو أزلية الإبن، والثاني: هو ما حدث في تجسده. والأوصاف التي تقال عنه وهو في الجسد، هي أوصاف خاصة بنا نحن البشر المخلوقين الذين لأجلهم جاء الابن وتجسد.

والثاني، أي مجال الأسفار، وهو ما يكمل التفسير الكنسي، يعني بكل دقة: التمييز بين ما يسبق التجسد، وما حدث في تجسد الرب، وما تم بعد قيامته وصعوده.

([1]) PL. 51:209-210.

ولذلك لا يمكن فصل تفسير الكنيسة، أي تفسير ما هو حادث لنا في يسوع المسيح، عن مجال الأسفار ،وهو المجال الذي يعطي لنا رؤيا كاملة لحقائق التدبير، وهي بكل دقة:

١- إن ما هو في حاجة إلى الكمال لأنه أصيب بالعطب، هو الإنسان وليس الله الكلمة.

٢- ما زاد على الناسوت لم يكن موجوداً أصلاً في الناسوت لأنه:

* قابلٌ للموت والألم رغم اتحاده بأقنوم الله الكلمة.

* لم يدخل شركة الحياة الإلهية قبل الإتحاد.

* لا زال بعد الاتحاد بأقنوم الله الكلمة قابل للموت، ولذلك كان يجب أن يغلب الموت ويدوس الفساد، بل ويسبي الجحيم، ثم ينال ذات المجد الإلهي الذي يُعطى من أقنوم الكلمة، وهو نفسه مجد أقنوم الكلمة، ولكنه يعطى للناسوت لكي يبقى ناسوتاً ممجداً (فيلبي ٣: ٢١).

٣- كل الأفعال الخاصة بأن الابن "أخذ" أو "أعطى" أو "صار" وغيرها، هي أفعال استعلانات النعمة الإلهية التي أُعطيت للناسوت ليس فقط بسبب الاتحاد، بل حسب الحياة أيضاً؛ لكي يصبح الناسوت: حياً خالداً – عديم الموت والألم – شريكاً في كل ما هو خاص بالابن، مع بقاء هذا الناسوت كما هو، أي لا يتحول إلى ذات اللاهوت لأن هذا ما سوف يحدث للبشر الذين سوف يأتي بهم الله الكلمة إلى ذات الشركة[١].

الممارسة الكنسية هي أول درس في العقيدة الأرثوذكسية:

"**نحن نصلي ما نؤمن به**"، فالصلاة ليست دعاء، ولا هي حديث مع الله، ولا هي كلمات تُقال .. طبعاً الجانب اللفظي ظاهر والكلمات معروفة، ولكن الصلوات حتى في شكلها اللفظي مثل: "أبانا الذي في السموات"، هي إشارة ولفظ يكشف عن علاقة الآب بالأبناء وهي علاقة تبنِّ، فقد سبق اللفظ، تجسد ابن الله ومجيء الروح القدس "بما

(١) هذا ملخص واف سوف نشرحه بمزيد من التفصيل في محاضرات عن الأريوسية – تنشر قريباً على موقع الدراسات القبطية.

أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤)، فالبنوة الحقيقية كيانية، وليست مجرد كلمة، فجوهر الصلاة في الأرثوذكسية المسيحية هو:

١- شركة كيانية هي سبب استخدام الكلمات.

٢- عمل مباشر للروح القدس.

٣- نحن نصلي "في الله"، أي في الابن بالروح القدس للآب، نحن نصلي "في الله لله"؛ لأن استعلان الثالوث غيَّر الصلاة معنىً ومبنى.

٤- نحن نذوق - بشكل مباشر - ما حققه الابن من ميلاد جديد، غلبة الموت، هبة الحياة الأبدية، شركة الحياة الإلهية، الميراث الأبدي ... هذه كلها ليست مجرد عبارات، بل علاقة كيانية، وهي لذلك تعطى في السرائر.

وعلى ذلك، فالبنوة في المعمودية – سكنى الروح القدس في الميرون – شركة جسد ودم الرب، هي شركتنا في المسيح وفي الثالوث نفسه.

"**وما نؤمن به هو صلواتنا**"، هو ممارستنا؛ لأن كل أفعال المسيح دخلت حياة الكنيسة وكوَّنت حياة الكنيسة. دخلت ولادته في حياة الكنيسة، فأسَّست الولادة من الماء والروح. دخلت تجاربه في البرية، فأعطت لنا السلطان على الأرواح النجسة. دخلت معموديته، فأعطت لنا المسحة. دخل الصليب وتغلغل في أعماق الحياة الكنسية، وحمل في داخله القيامة، كما حملت القيامة في داخلها الصليب؛ لأن المصلوب هو القائم، ولأن القائم هو "حمل كأنه مذبوح" (راجع رؤ ٥: ٦) يحمل جراحات الصليب؛ لأن دم الصليب هو دم العهد الأبدي (عب ١٣: ٢٠)، فالصليب ليس من أحداث الماضي التي انتهت بالقيامة، بل هو الحدث الذي غلب فيه الرب الموت والشيطان معاً، وأعلن نصرة الحياة، وحمل هذا في كيانه الحي القائم من الأموات.

فما هي هذه الممارسة؟

هي السرائر أو الأسرار، وهي استعلان الثالوث القدوس في هبات الحياة الجديدة في يسوع المسيح. تأمل الكلمات التالية عند تقديم الحمل:

"مجداً وإكراماً ...

للثالوث القدوس: الآب والابن والروح القدس".

فكيف صار سر الافخارستيا هو مجد وكرامة الثالوث؟ والجواب هو في الممارسة، أي في اجتماع الشعب ليصير واحداً كما أن الثالوث هو واحد (يوحنا ١٧: ١١).

وهي حدة يجمعها "جسد ودم عمانوئيل إلهنا، هذا هو بالحقيقة آمين". فهو بجسده يوحِّدنا، وبدمه يطهِّرنا، وبالروح يقدِّسنا، ويعطي ذاته لاهوتاً وناسوتاً؛ لأنه "المسيح الواحد غير المنقسم من بعد الاتحاد إلى اثنين"، ولأن "لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين"، فهو حاضرٌ حيٌّ يوزِّع حياته دون أن ينقسم؛ لأن الانقسام جاء مع الخطية. هو يوزِّع لكي يجمع لأن المحبة تجمع، هو يعطي حياته لكي نبقى أحياء لأن الحياة منه وفيه. هو في كل عضو على حدة، وكل عضو هو فيه مع باقي الأعضاء، هو يجعل الكنيسة جسده؛ لأن شركتنا في جسده تجعل جسدنا جسده. هذه هي الحقيقة الكبرى، ولكن الوجود في المسيح هو وجودٌ في الآب؛ لأننا في المسيح نستدعي الروح القدس، وهو ذات الروح الذي به خُتمنا، ولكننا نستدعي الروح؛ لأن في الاستدعاء قبول للعطية. ولأن الختم الذي أخذناه في الميرون هو ختم حياة أبدية (حسب رشومات الميرون) لا يزول، ولكنه نفس الختم الذي يؤهِّلنا للشركة، وهو نفس الختم الذي يعطي لنا حق استدعاء الروح القدس، ليس فقط لأننا نتكل على وعد الرب بمجيء "الباراكليت"، ولكن أيضاً لأن ختم الروح فينا هو الذي يجعل الروح القدس خادماً لكل الأسرار، هو يأتي ليس لأنه غائب، ولكن لكي ينفتح الوعي من جديد على الحقيقة التي عبَّر عنها كيرلس الأورشليمي ومن بعده أوغسطينوس:

"نحن نصبح أو نصير إلى ما وُهِبَ لنا".

We become what we are.

هذه حالة الديمومة والبقاء، ولكنها أيضاً حالة "صيرورة"؛ لأننا نصير إلى ما وُهِب، وبذلك لا تفقد الكلمات معناها: "مجداً وإكراماً للثالوث القدوس"، ثم "سلاماً وبنياناً لكنيسة الله الواحدة"؛ لأن المسيح يبني الكنيسة عندما يعطي حياته لكل الأعضاء لكي تنمو هذه الأعضاء.

الليتورجيا هي استعلان الإيمان كممارسة:

ذلك هو منهج الليتورجيا الذي نراه في "تجسد الكلمة"، والمقالات الأربع ضد الأريوسيين، والرسائل الخمس إلى سرابيون، وفي عظات كيرلس الأورشليمي، وشرح إنجيل يوحنا للقديس كيرلس السكندري، وعظات ذهبي الفم على رسائل القديس بولس.

بالطبع، لا يمكن تلخيص هذه الكتب كلها هنا في كتاب واحد أو عدة كتب، وإنما سوف نكتفي بعرض شامل موجز للمنهج نفسه؛ لأن الليتورجيا تبدأ وتنتهي بالصلاة، ولكن الليتورجيا تدخلنا في شركة حياة الثالوث، فهي قائمة وثابتة على استعلان الآب بالابن وقبول الابن المستعلَن جسدياً في الروح القدس، فكيف يصبح هذا شرحاً؟

الشرح في الأرثوذكسية هو تذوُّق وممارسة السر، ولكي ندرك هذا، لابد من عرضٍ شاملٍ لقداس القديس باسيليوس نفسه. ومَن يدرس – بعناية – كتاب القديس باسيليوس عن الروح القدس، تاركاً الجانب الدفاعي الذي يخوض فيه باسيليوس صراعاً طويلاً مع الهراطقة، سوف يكتشف العناصر الليتورجية بسهولة، أي تلك التي تُمَارس في صلوات الكنيسة؛ لأن الفصل الخاص بتقديس الملائكة ثم البشر، ينتهي بعمل الروح القدس في الكنيسة.

وهكذا تعني الممارسة في الليتورجيا:

– قبول العطية الإلهية، أي حياة الابن المتجسد بالروح القدس.

– الدخول في شركة الثالوث.

ولكي يظهر هذا بوضوح، يمكننا أن نرى ذلك في تتابع الصلوات في القداس الباسيلي، في صلاة الاستعداد: "أيها الرب العارف قلب كل أحد"، فهي موجهة للآب؛ لأن خدمة الليتورجيا هي خدمة الآب، فهو الذي يشترك "في العمل معنا"، ثم من الآب للثالوث في نفس الصلاة، هو انتقال الوعي بوحدانية الجوهر "لأنك أنت هو غفران خطايانا .. ودالتنا وأنت الذي نرسل لك إلى فوق المجد والإكرام والسجود أيها الآب والابن والروح القدس". والمذبح هو مذبح الآب، وهو أيضاً مذبح الابن، والاقتراب من المذبح هو لتقديم الذبيحة للثالوث، وهذا ظاهر في "مجداً واكراماً للثالوث القدوس"،

وأيضاً في الذكصولوجية التي تختم صلاة "أنت يا رب علمتنا هذا السر العظيم الذي للخلاص". وعندما يقدِّم الحمل، يطلب من الآب: "أعط يا رب أن تكون مقبولة امامك ذبيحتنا عن خطاياي وجهالات شعبك؛ لأنها طاهرة حسب موهبة روحك القدوس بالمسيح يسوع ربنا". ورشومات الحمل باسم الثالوث الآب والابن الروح القدس تأكيداً على أن العطية هي عطية الثالوث القدوس، وحتى في مرد الشماس: "واحد هو الآب القدوس ..."، ثم تمجيد الثالوث في مرد الشعب: "المجد للآب والابن والروح القدس الآن وكل أوان والى دهر الدهور آمين هللوياه"، أي فرحٌ وتمجيد.

ثم أليس من الواضح أن تحليل الخدام[١] هو أولاً من فم الثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس، وبعد ذلك شركة الكنيسة في الثالوث، وهي الكنيسة الجامعة والاثنى عشر رسولاً ... الخ وفي نهايته: "لأنه مبارك ومملوء مجداً اسمك القدوس أيها الآب والابن والروح القدس ..".

ما الذي تحرص عليه الصلوات؟

ما تحرص عليه الصلوات هو العودة الدائمة إلى الآب، وحتى في قداس القديس غريغوريوس – الذي ظُلِم في الدراسات الليتورجية المعاصرة، واعتبره البعض صلوات لكنيسة أوطاخية سقطت في بدعة "الطبيعة الواحدة"[٢] – فإن محور الصلوات هو حقاً للابن، ولكن للابن الذي هو دائماً "في حضن الآب". فكل ما يحدث هو "بنعمتك (المسيح الرب) ومسرة أبيك الصالح وعمل أو فعل روحك القدوس؛ لأنك أنت الرازق ومعطي جميع الخيرات"، بل وبكل وضوح: "وأنت الذي نرسل لك إلى فوق المجد والإكرام والسجود مع أبيك الصالح والروح القدس المحيي المساوي لك الآن وكل أوان".

وفي بداية القداس الغريغوري نجد أن الابن هو الذي "أظهر لنا نور الآب"، وهو الذي "أنعم علينا بمعرفة الروح القدس الحقيقية" وهذا لأنه "أظهر لنا هذا السر العظيم الذي للحياة"، وعندما نسمع، بل ونصلي كل مراحل التدبير، فإن هذا لا يتم بالصلاة

---

(١) التحليل يعني فك كل الرباطات التي تمنع من الخدمة.

(٢) لا يستحق هؤلاء ذكر اسماؤهم بسبب احتقارهم المفرط لكنيسة مصر.

وحدها، بل بحلول الروح القدس في صلاة استدعاء الروح القدس.

عندما يكون الترتيب خاصاً بالذبيحة، وبشكلٍ خاص، بكهنوت الرب يسوع، فإن الصلاة هي للابن: "أيها السيد الرب يسوع المسيح الشريك الذاتي وكلمة الآب ..". وما دعوة بولس للخدمة إلَّا دعوة الابن له المجد: "يا رب المعرفة ورازق الحكمة .. الذي من قِبل صلاحك دعوت بولس هذا ..."؛ لكي تختم الصلاة بالذكصولوجية للثالوث: "وأنت الذي نرسل لك إلى فوق المجد والإكرام والسجود مع أبيك الصالح والروح القدس المحيي المساوي لك الآن وكل أوان".

وفي خدمة السر "قدوس – قدوس – قدوس"، الصلاة هي للآب، ولكن ليست للآب بدون الابن: "وفي آخر الأيام ظهرت لنا نحن الجلوس في الظلمة وظلال الموت بابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح ..". فالصلاة هنا هي استعلان الآب في الابن، وهو ذات ترتيب فصول تجسد الكلمة، أي استعلان الآب في الابن.

وبعد ذكر الآباء في المجمع، وهم شركاء الروح القدس (عب ٦: ٤)، فإننا في شكر لله الآب ضابط الكل أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح؛ "لأنه جعلنا أهلاً .. أن نقف الآن في هذا الموضع المقدس .. هو أيضاً فلنسأله (الآب) أن يجعلنا مستحقين لشركة وصعود أسراره الإلهية غير المائتة".

فمن الآب نأخذ كل شيء، وما نأخذه مُستعلَنٌ ومُعطى بالابن، ويقدَّس بالروح القدس، وهو ما تؤكده الصلاة: "كملت نعم إحسان ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، اعترفنا بآلامه المخلِّصة، بشَّرنا بموته، آمنّا بقيامته" (ترتيب التدبير)، ثم لاحظ "وكَمُلَ السر" بالتقديس، وذلك حسب شرح القديس باسيليوس[1] وهو ما تؤكده الصلاة: "لكي إذ طهرتنا كلنا، توحِّدنا بك (بسبب أو بواسطة أو) من جهة تناولنا من أسرارك الإلهية لكي نكون مملوئين من روحك القدوس .... وننطق بمجدك كل حين بالمسيح يسوع ربنا".

لعل القارئ قد أحس، ولو مجرد إحساس بأن الثالوث لا يمكن أن ينفصل أو

---

(١) في كتابه عن الروح القدس.

يُقسَّم، وأن ما يقال، وهو نداء الكنيسة للآب، مصدره اليقيني هو تجسد الابن ومسيرة التدبير، وأن الثالوث يُعاش ممارسةً لا فكراً يجول فقط في عقل الإنسان، بل حياة تُعاش وإيمان يُمارَس.

إن ثالوثية الليتورجية هي قلب الحياة الكنسية، وكل شرح يجب أن يبدأ بالثالوث، وإذا ابتعد الشرح عن ثالوثية الأقانيم ووحدانية الجوهر، سقطت كل السرائر؛ لأننا في عودتنا للثالوث نسمع نداء الآب، ونتَّحد بالابن، ونتقدس بالروح القدس.

وعندما نتحول إلى توحيدٍ مُبهم في صلواتنا؛ تنهزم الشركة فينا، ونتحول من أشخاص إلى أفراد، من أشخاص يكمِّلون وجودهم بالشركة إلى أفرادٍ أغلقوا على أنفسهم الوجود، وتحولوا إلى وجودٍ مغلق على الذات، وهو وجود الفرد العائش في عزلة، وبالتالي – بعقلية الأفراد – نصلي الليتورجيا وننسى أننا في حضرة الآب الذي في حضنه الابن وهو مُرسِل الروح القدس، وأننا في حضرة الثالوث. ولكن لأننا أشخاصٌ تكملنا الشركة، نهتف – قبل التناول – من أعماق تذوُّق الشركة: "واحدٌ هو الآب القدوس. واحدٌ هو الابن القدوس. واحدٌ هو الروح القدس"، الثالوث الذي أعطى "القدسات للقديسين". وقبل التناول نصلي: "يا رئيس الحياة .. كلمة الله الآب، ... ليُصيِّرنا تناولنا من أسرارك المقدسة واحداً معك إلى الانقضاء وباركنا. أنت هو ابن الله، لك المجد معه، مع الروح القدس المحيي إلى الأبد آمين".

الدروس العقائدية التي يجب أن نتعلمها من صلوات القسمة:

عندما يُقسَّم جسد الرب للتوزيع لا للفصل، فإن استعلانات التدبير ترافق القسمة لكي نقبل جسد الرب ودمه بذات كلمات الايمان.

ففي قسمة صوم الميلاد لاحظ أن "الله غير المرئي .. أرسل نوره الحقيقي ابنه الوحيد يسوع المسيح الكلمة الذاتي"، ومن كلمات (يوحنا ١: ١٨) الابن "الكائن في حضن الآب"، وأضافت الصلاة "كل حين"؛ لكي تؤكد أن الذي أمامنا على المذبح هو ذاته "الكائن في حضن الآب كل حين"، وهو "الذي أتى وَحَلَّ في الحشا البتولي غير الدنس"، ثم ترتفع الرؤيا إلى كيف وحَّد التجسد السماء والأرض؛ ولذلك نحن نسبح مع

طغمات الملائكة قائلين: "قدوس، قدوس ..".

وفي عيد الغطاس توزَّع الإفخارستيا على الذين نالوا "نعمة البنوة بحميم الميلاد الجديد وتجديد الروح القدس"، هذه العطية هي التي تجعلنا نقدم صلاة "أبانا الذي" ليس في "كثرة كلام الأمم الباطل"، أو "رفض اليهود للمسيح"، بل حسب "شريعة الابن الوحيد المملوءة خلاصاً". وعندما تمتلئ الشريعة من خلاص يسوع الابن الوحيد، تصبح الشريعة للحياة وليست رباطات الناموس، والدليل المحسوس هو هذه الشركة في جسد ودم ربنا.

في الصوم الكبير تبدأ الصلاة بالرحمة "الله الرحوم، المتجسد لأجل خلاصنا، الذي أنار الحياة للخطاة، وأنقذنا من الموت، ثم اعطانا خبز الحياة، وهو الذي صام عنَّا"، عندئذٍ يدخل الصوم مجال المحبة وحرية الاختيار الكامنة في المحبة.

ومن أروع الصلوات، قسمة سبت الفرح، التي عندما سمعتها لأول مرة في عام ١٩٥٧ وأنا أخدم مع أبي القمص مينا المتوحد بعد سهرة سبت الفرح، كدت أقع على الأرض من وقع الكلمات: كثرة الرحمة التي جعلت المسيح ينزل إلى الجحيم ويُبطِل عز الموت. هو مات عنا على الصليب، ولكنه ظلَّ ملك الدهور غير المائت الأبدي كلمة *Logos* الله الذي على الكل"؛ لأنه وإن كان قدَّم ذاته ذبيحة إلَّا أنه هو نفسه راعي الخراف. والأهم في تدبير الذبح "رئيس كهنة الخيرات الآتية" (عب ٩: ١١)"، ثم تشرح آلام الرب، وهي التي تعطي لنا شركة جسده ودمه، فقد زرعت هذه الآلام والموت والقيامة "شجرة الحياة التي هي جسده الإلهي ودمه الحقيقي"[١].

والجسد الذي هو واحدٌ مع لاهوته (قسمة عيد القيامة)، هو جسدُ قاهر الموت، وهو ما سوف نتناوله، ولعل تحول هذا الجسد القابل للموت إلى جسد الحياة، هو الذي يجعل الكنيسة تشترك في الجسد؛ لأن المسيح "أنعم علينا بنور قيامته من قِبَل تجسده الطاهر، فليضيء علينا نور معرفتك الحقيقية لنضيء بشكلك المحيي". آمين.

---

(١) لاحظ عبارة "رُفِعَ حكمَه في تواضعه"، وهي قراءة كل الاباء لكلمات اشعياء ٥٣: ٨ ووردت نفس الكلمات في (تجسد الكلمة ٣٤: ١)؛ لأن المسيح لم يمت تحت حكم الدينونة الخاص بالخطاة، بدليلٍ حاسم، وهو قوله للص: "اليوم تكون معي في الفردوس" (لوقا ٢٣: ٤٣).

هذا ما يجعل شركتنا في المسيح يسوع شركة حياة، وهي ليست شركة في أقوال، بل نحن – بجسد الرب ودمه – ندخل كل مراحل التدبير، وننال منها ما أودعه الرب يسوع لنا.

الفصل الخامس

الوجود الكوني للمسيح يسوع
في التسبيح المسمى بـ (الإبصاليات)

كان إصرار القمص مينا المتوحد على أن أصلي "إبصالية" كل يوم، مهما كانت الظروف، هو بداية الاهتمام بذكر اسم ربنا يسوع المسيح. وعندما عادت إلينا "صلاة يسوع" في مذكرات سائح روسي إلى أبيه الروحي" ترجمة المهندس يسى حنا – مدارس أحد الجيزة ١٩٥٧، ثم صدور كتاب "حياة الصلاة الأرثوذكسية للأب متى المسكين وكان المهندس يسى حنا قد قدم نسخةً مطبوعةً على الآلة الكاتبة للأب القمص متى المسكين حصل عليها الأستاذ يسى حنا في زيارة لمدينة القدس، وكانت هدية من الأب لعازر مور *Moore* ... جاء زخم الحياة الأرثوذكسية، ثم جاءت دراسات جادة مبنية على أقوال الشيوخ تؤكد أن صلاة يسوع نشأت في الأسقيط (حسب دراسة الأسقف كاليستوس *Ware* – اسم يسوع عدة طبعات). لكن الاهتمام بالإبصاليات القبطية لاسم يسوع ظلَّ معلقاً لم يدرسه أحد، وظل موضوعاً مغلقاً، ربما لعدم وجود طبعة تاريخية محققة للتسبحة السنوية تكمِّل ما نشره العالم القبطي أقلاديوس لبيب منذ ما يقرب من ٨٥ سنة.

أولاً: البنية اللغوية للإبصاليات:

تعتمد الابصاليات على أبجدية اللغة القبطية، وهذا ما يلاحظه القارئ؛ إذ أن كل استيخون (مقطع) يبدأ بأول حرف في الأبجدية، ويليه بعد ذلك الحرف الثاني بالتتابع ⲁ ثم ⲃ ثم ⲅ ومع دقة تكوين المقاطع وتناسق كل السطور بحيث لا يزيد كل

مقطع على ٦ كلمات تنتهي بمرد هو ذكر اسم ربنا يسوع المسيح على هذا النحو:

- يا ربي يسوع أعني (إبصالية الأحد).
- ربي يسوع (إبصالية الاثنين).

وتقدِّم باقي الابصاليات التكوين اللاهوتي الذي يُبنى عليه ذكر اسم الرب يسوع، لا سيما تلك الخاصة بالتدبير؛ لإبراز القوة، والقدرة العاملة في الخلاص في اخراج الشياطين، والانتصار في التجارب، والعبور في الشدائد.

وكل قطعة هي تلك النار الإلهية التي يضعها الروح القدس الذي ينطق اسم الربوبية (١كو ١٢: ١ - ٣)[١] في قلب الذين يسبِّحون ويلتصقون بالمخلِّص.

وأنا هنا لا أريد أن أقدِّم أية نصوص من الإبصاليات؛ لأني أحب أن يكتشف كل قارئ بنفسه عظمة التكوين اللاهوتي الرائع لها، ولكن حتى لا يكون الشرح عاماً، هذه بعض العبارات الخاصة بالرب يسوع وعمله الإلهي:

- يسوع خالق ... "في ستة أيام صنعت كل الخليقة".
- يسوع تمجده كل الخليقة ... "كل الخليقة تمجد اسمك".
- يسوع رب ... "لك الربوبية والسلطان".
- يسوع هو الإله المخلص ... "أسرع ياإلهي لتخلصني".
- يسوع واهب الروح القدس ... "روحك القدوس لا تنزعه مني".
- يسوع هو سبب القيام من النوم مبكراً ... "أقوم وقت السحر لأبارك اسمك".

وإلوهية الرب ومكانته كفادي ومخلِّص تسري في كل الابصاليات.

ثانياً: اسم ربنا يسوع وسر الإفخارستيا:

تلاوة اسم الرب يسوع ليست مجرد تلاوة، بل كما تقول إبصالية الاثنين:

---

(١) "وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَوَاهِبِ الرُّوحِيَّةِ أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا. أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ أُمَماً مُنْقَادِينَ إِلَى الأَوْثَانِ الْبُكْمِ كَمَا كُنْتُمْ تُسَاقُونَ. لِذَلِكَ أُعَرِّفُكُمْ أَنْ لَيْسَ أَحَدٌ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِرُوحِ اللهِ يَقُولُ: «يَسُوعُ أَنَاثِيمَا». وَلَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَسُوعُ رَبٌّ» إِلاَّ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ.

- "فليكن اسم الرب فينا
ليضيء علينا في إنساننا الداخلي".

فتلك هي الاستنارة التي يعملها الروح القدس، ولكن هذه الاستنارة لا تفصل الاسم القدوس عن الافخارستيا:

- الله هو عمانوئيل الطعام الحقيقي
شجرة الحياة العديمة الموت".

وفي نفس الابصالية:

- "يقوم حولك الشاروبيم والسارافيم
ولا يستطيعون أن ينظروك
ونحن ننظرك كل يوم على المذبح
ونتناول من جسدك ودمك الكريمين".

إن أي تعليق على هذه الكلمات الرقيقة، سوف يُفسد جمالها.

ليست الافخارستيا وهي الرباط العضوي مع الاسم، ولكن محبة الاسم القدوس تجعل لمِثَل الرب نفسه تفسيراً خاصاً بالتسبيح والالتصاق باسمه.

- "هذا هو الحجر الحقيقي الكثير الثمن
- الذي باع التاجر كل ماله واشتراه
- اترك لنا نحن أيضاً الآن
- هذا الحجر ليضيء علينا في انساننا الداخلي
- زينة نفوسنا وفرح قلوبنا
- هو اسمك القدوس يا ربي يسوع".

ثالثاً: اسم الرب والروح القدس:

وتلاوة الاسم ليست –كما ذكرت – هي مجرد تلاوة، بل هي طلب نعمة الروح القدوس لكي – بهذه النعمة – يمكن لمن يصلي الاسم أن ينال ذات النعمة التي نالها النُّساك؛ إذ يصبح الاسم:

– "ينبوع ماء حياة حلواً في حناجرهم أكثر من العسل" (الثلاثاء).

ولكن النداء يسبق كل هذا:

– "تعال إلينا اليوم يا سيدنا المسيح".

أكاد أرى الأصل الأرامي الشائع في زمن بولس الرسول: "ماران آثا" مع إضافة اسم المسيح .. ثم:

– "أضئ علينا بلاهوتك الفائق".

ويعقب ذلك مباشرة.

– ارسل لنا هذه النعمة العظيمة التي لروحك القدوس المعزِّي".

والسبب:

– "لكي أنطق بكرامة يسيرة لاسمك القدوس المبارك".

وشركة قديسي الكنيسة

– "هذا الذي تمجَّد في أفواه قديسيك الأبرار سكان الأرض"؛

لأن اسم يسوع "هو يكون لهم طعام حياة"، ليس للنفس فقط، بل للجسد أيضاً. ولعلنا سوف نكتشف في يوم من الأيام ماذا يقصد الطب المعاصر لنا عن وحدانية النفس والجسد في *Psycho-somatic* التي تعبِّر عنها هذه الكلمات بصدق يعرفه الذين مارسوا صلاة يسوع.

– "إذا أخبروا به

تفرح قلوبهم

وتزهر أجسادهم

إذا نطقوا به

تستنير عقولهم

وترتفع إلى العلا قلوبهم" (الثلاثاء).

رابعاً: اسم الرب يسوع مفتاح الأسفار:

لم أجد في كل مؤلفات الآباء العظام هذا التعبير السهل الممتنع عن قراءة ودراسة الأسفار في يسوع المسيح، وإبصالية الأربعاء تطرح المنهج النسكي اللاهوتي الليتورجي في وحدة واحدة سهلة جداً على من عرف منهج الآباء في شرح الأسفار .. لاحظ أن مجاري المياه في المزمور الأول التي تنمو حولها أشجار الله هي "الملازمون كل حين تلاوة اسمه القدوس"، ومجرى المياه هو "مخلصنا الصالح والملازمون له تحيا نفوسهم" لكن التلاوة لا تبعد الإنسان عن الأسفار المقدسة.

- "يعلِّموننا في الكتب المقدسة أنفاس الله (حسب النص اليوناني والقبطي ٢تيموثاوس ٣: ١٦) أن نكون رحومين على الخليقة التي خلقها"[١].

وفي (١كو ١٣: ١ – ٨) أنشودة المحبة الكبرى

- "المحبة التي تكلم عنها الرسول القديس

أي اسم الخلاص الذي لربنا يسوع المسيح".

لأن كل أوصاف المحبة كما وردت في (١كو ١٣: ١ – ٨) هي أيقونة لفظية تعبِّر عن المسيح شخصياً. هكذا، بالاسم نعود إلى المحبة الكاملة التي تجعل من يلازم الاسم "إن كنا معوزين من أموال هذا العالم وليس لنا شيء لكي نعطيه صدقة"، (وهو تعبير رسول الرب القديس بطرس للمقعد ليس لي فضة أو ذهب أعطيه لك ولكن الذي أملكه إياه أعطيك لك (أع ٣: ١ – ١٠)، وهنا يقول المرنم القبطي:

- "لنا الجوهرة اللؤلؤة الكثيرة الثمن

الاسم الحلو المملوء مجداً

الذي لربنا يسوع المسيح

إذا ما لازمناه في إنساننا الداخلي

فهو يجعلنا أغنياء حتى نعطي آخرين".

---

(١) رحومين حتى مع غير المؤمنين لأن معاملة غير المؤمنين معاملة خاصة هي سمة غير مسيحية.

لأن هذا هو الاسم الذي يعطي الحياة.

خامساً: اسم الرب يسوع وتدبير الخلاص:

عشية يوم الصلبوت "يوم الجمعة الذي صُلِبَ فيه مخلصنا الصالح"[١] تبدأ الابصالية بالميلاد الأزلي قبل كل الدهور، ثم الميلاد في بيت لحم، ثم المعمودية في نهر الأردن، وبعدها الصوم في البرية. ولكن الصوم يجمع الصلب أيضاً في "سحق الشيطان تحت أقدامنا"، أمَّا الدفن، فهو سابق للقيامة.

– "يارب يسوع الذي وضع في القبر
أكسر عنا شوكة الموت".

وعن القيامة:

– "أقمنا بقوتك".

أمَّا عن ظهور الرب الثاني:

– "أصنع معنا محبة في منبرك المخوف".

ثم ذكصولوجية ثالوثية

– "لأنك بارادتك وحدك
ومسرة أبيك
والروح القدس
أتيت وخلَّصتنا".

الثالوث هو أساس الخلاص، وياليتنا نتعلم هذه الحقيقة الإلهية؛ لأن مجيء الابن إلينا كان ولا زال بإرادته وحده، وعندما نقول: "ومسرة أبيه"، فنحن لا نلغي إرادة الآب، بل جاءت كلمة "مسرة" تعبِّر عن ما هو أكثر من القبول أو الموافقة أو حتى الرضى، بل السرور التام النابع من ذات الإرادة الواحدة للثالوث لأننا عند ذكر الروح القدس لا ننسى أنه هو الذي كوَّن ناسوت الرب ومسح كيانه الإنساني، وحسب تعبير إنجيل يوحنا

---

(١) عبارة القمص مينا المتوحد – قداسة البابا كيرلس السادس.

حلَّ الروح القدس ونزل عليه بسرعة، أو في شوق؛ لأنه مثل الابن، كان مشتاقاً لخلاص البشر (راجع انجيل يوحنا ١: ٣٢).

سادساً: إبصالية يوم الصلبوت، وعلامة الصليب:

تشدد الابصالية الخاصة بيوم الصلبوت على علامة الصليب، فالتسبيح لا ينطلق من فراغ إلى فراغ، بل من حياة الشركة إلى الممارسة الجماعية أو الكنسية، فيوم الجمعة – كما لا زال في أدبنا الشعبي – هو يوم الصلبوت، ويوم صوم على مدار السنة ما عدا أيام فرح القيامة (الخماسين).

استخدمت الابصالية الكلمة اليونانية σημείον "علامة"، وقد صار الاسم مرادفاً للصليب. وهو ما أكد عليه إنجيل القديس متى (٢٤: ٣٠) بأن في نهاية الدهور وبعد خراب اورشليم؛ "عندئذ تظهر علامة ابن الانسان في السماء"، "وتنوح عليه قبائل الأرض". ونوح القبائل ورد في نبوة زكريا (١٢: ١٠ – ١٢). وحسب وثائق التاريخ الكنسي، فإن علامة ابن الانسان هي الصليب (الديداكي ١٦: ٦ لاكتانتيوس ٦: ٢٨ Div, Inst. – القديس اثناسيوس تجسد الكلمة ٢٥، وقبل الكل، أكليمنضس السكندري: Protr 111: 11). وهذه العلامة هي كيف بسط الرب يديه الاثنتين على الصليب لمصالحة الجميع (أوغسطينوس عظة على إنجيل يوحنا ٢١: ١٨ الآباء اللاتين مجلد ٣٥: ١٩٦٩). وقد لاحظ الآباء منذ زمن ايريناوس أن بسط يدي موسى لهزيمة عماليق كان إشارةً إلى بسط يدي الرب على عود الصليب (ضد الهرطقات ٤: ٣٨ — الدسقولية ٦: ١٥: ٤)، لكن الذي يهمنا هنا هو رشم الصليب، ولعل أقدم ما وصلنا هو شهادة العلامة ترتليان في رده على مرقيون الغنوسي (٣: ٢٢ — ٧٠٥)، فقد ثبت التسليم الكنسي الذي سوف نراه بعد ذلك عند العلامة أوريجينوس السكندري أن حرف ταυ كان يكتب في العبرانية T وسوف يعود حرف T بعد ذلك لكي يدخل في حرف X أول حرف في اسم المسيح. يذكر ترتليان "الخالق سبق وأخبرنا أن البار سوف يتألم .. وكل الذين رُشموا (ختموا) بهذه العلامة التي سبق واخبرنا عنها حزقيال النبي "وقال لي السيد الرب: ادخل من باب أورشليم وفي وسط أورشليم ضع العلامة de signum

tau على جباه الرجال (حزقيال ٩: ٤)، ولذلك يعود ترتليان في مقالته ضد المتهودين (فقرة ١١) ليقول إن الذين هلكوا من اليهود هم الذين ينالوا هذه العلامة.

وطبعاً في مقالة ترتليان عن المعمودية (١٣: ٢) كان رشم أو ختم المعمدين. وختم الصليب في (مقالة جسد القيامة (٨: ٣) "الجسد يُغسل لكي تتطهر النفس من الأدران، الجسد يُمسح لكي تتقدس النفس لله، الجسد يُرشم (بعلامة الصليب) لكي تنال النفس قوة الثبات. وفي مقالة الصلاة (٢٩: ٣) فالصلاة "تحفظ ختم الرب"، ويؤكد ذلك تلميذ ترتليان، الشهيد كبريانوس (راجع على سبيل المثال لا الحصر رسالة ٧٣: ٩). وعلامة الصليب تختم دهن الموعوظين بعد جحد الشيطان (التسليم الرسولي – هيبوليتوس ٢٠: ٨). وفي المسحة بعد الخروج من الماء "أدهنك بزيت مقدس باسم الله الآب ضابط الكل والمسيح يسوع والروح القدس، ويرشمه على جبهته (٢٣: ٣).

في الفقرات المختارة من نبوة حزقيال *Selectain Ezechielem* (الآباء اليونانيين ١٣: ١٠٠) يذكر العلَّامة أوريجينوس أن ثلاثة يهود سُئلوا عن حرف ταυ فقال الأول إن حرف التاء المذكور في نبوة حزقيال هو آخر حروف الأبجدية العبرانية، وهو يرمز إلى كمال الفضائل. وقال الثاني إنه أول حرف في اسم التوراة، فهو إشارة إلى أن الختم هو من يحفظ الشريعة. أمَّا الثالث وقد آمن بالمسيح فقال إن هذا الحرف كان يكتب + (على شكل صليب) لأنه نبوة عن الختم الذي يوضع على جباه المسيحيين"، ثم يذكر العلامة العظيم في العظة السادسة على سفر الخروج: "ماذا تخاف الشياطين؟ وأمام مَن ترتعش؟ بدون شك صليب المسيح، الخوف والرعدة تجعلهم يهربون عندما يرون علامة الصليب علينا (ختم المعمودية) التي وُضِعت علينا عندما آمنَّا، وهو نفس الخوف الذي يشعرون به عندما يروننا لأنهم يرون فينا صليب المسيح، وهو ما يجعلنا نحن أيضاً نقول: "حاشا لي أن أفتخر إلَّا بصليب الرب يسوع المسيح" (غل ٦: ١٤)، فالصليب انتصارٌ على الشيطان" (عظة ٤ على سفر الخروج ٦ – ٧ وعظة ٦ على سفر الخروج ٨ وعظة ٨ على سفر يشوع ٣: ٦ وشرح انجيل متى ١٣: ٥٣ وشرح انجيل يوحنا ٦: ٥٥ ومن أهم كلمات الرسول بولس عن ظفر أو غلبة المسيح على القوات المظلمة هي (كولوسي ٢: ١٤).

لا خوف من الشياطين:

سوف نرى ذلك بكل وضوح في أطول نص عن الشيطان في سيرة الأنبا أنطونيوس بقلم القديس أثناسيوس، فقد شاع الخوف من الشياطين بشكل غير معروف في المصادر العربية، وربما القبطية التي نراها في كتابات النساك الذين لم يتتلمذوا على يد الرواد الأوائل. وهناك أبحاث لا مجال لها الآن، تؤكد أن كتابات إيفاجريوس (أوغريس) ليس لها علاقة بالمؤلِّف، بل هي من مصنفات القرن السادس، ولعل مقارنة دقيقة بين خطاب الأنبا أنطونيوس أكثر من صارع الشياطين بشكل عقلي وبشكل محسوس أيضاً، وما تُرِك لنا تحت اسم ايفاجريوس يؤكد الهوة التي تفصل بين الرؤيا الكتابية التي تبدأ في فقرة ٢٢ من سيرة الأنبا انطونيوس حتى الفقرة ٤٣ هذه الفقرات – كما ذكرت – هي أطول نص عن الشياطين في كتابات القرن الرابع، وكاتب هذه الفقرات هو المعلم الكنسي العظيم أثناسيوس، وقائلها هو أب جميع الرهبان حسب شهادة سوزمين (تاريخ الكنيسة ١: ١٣، وحياة الانبا بولا بقلم جيروم: ١٨). ما يهمنا الآن هو علامة الصليب، فهو محور إبصالية يوم الصلبوت، يوم سحق رؤوس الشياطين تحت قدمي الرب (كولوسي ٢: ١٤ – ١٥).

كان القديس العظيم أنطونيوس الكبير يقول مخاطباً زواره:

"إن الشياطين تخلق رؤى للجبناء؛ لذلك ارسموا (ارشموا) علامة الصليب، واذهبوا بشجاعة، واتركوا الشياطين يضحكون على أنفسهم، فكانوا (زوار الأنبا أنطونيوس) يتحصنون بإشارة الصليب ويرحلون". (فقرة ١٢ سيرة الأنبا انطونيوس – تعريب الأب ميشيل نجم – رهبنة دير مارجرجس الحرف – بيروت ١٩٩٥ – ٢٩) راجع أيضاً فقرة ٣٥ ص ٥٠ من السيرة).

وأيضاً: "عندما لا يستطيعون خداع القلب بشهوة دنسة .. يثيرون التخيلات لإخافته، آخذين شكل النساء والوحوش .. **لا نرتعب من هذه التخيلات**، لأنها ليست حقيقية وتختفي بسرعة، عندما يحمي المرء نفسه بالإيمان بعلامة الصليب" (فقرة ٢٣ ص ٣٩).

أمَّا في فقرة ٢٤ يستوحي القديس أنطونيوس الكبير تعليم الكتاب المقدس عن ضعف الشيطان كما ورد في (أيوب ٤: ٨ — ٢١ — أيوب ٤١: ٢٧ اشعياء ١٠: ١٤) لكي يؤكد بعد ذلك أن الرب يسوع أوثق الشيطان كعصفور حتى نسخر منه ومعه الحيات والعقارب (لوقا ١٠: ١٩)" (راجع ص ٤٠ – ٤١ من السيرة)؛ لكي يقول بعد ذلك في الفقرة ٢٧: "إن الرب كإله كمم أفواه الشياطين .. حتى لو ظهرت أنها تنقض علينا أو تهددنا بالموت، فهي ضعيفة ولا تقوى على شيء سوى التهديد". وفي الفقرة ٢٨ بعد أن يؤكد ضعف الشيطان يقول معلمنا الكبير: "لذلك يجب أن نتذكر عدم مخافتها (الأرواح النجسة). فلو كانت تملك قوة لما أتت بجمهرة ولما خلقت خيالات .. إذ يكفي أن يأتي واحد منها ويفعل ما يريده. بل أن كل ذي سلطان لا يلجأ إلى القتل بالخيال ولا يثير الرعب بالضجيج، بل يستخدم قوته بسرعة كما يشاء. لكن بما أن الشياطين لا قدرة لها، فهي تمثل على المسرح مغيِّرة شكلها ومرعبة الأطفال .. الشياطين لا قوة لها وترعب الناس بالخيالات (ص ٤٥).

وفي الفقرة ٢٩ بعد أن أكد عدة مرات ضعف الشياطين، يذكر القديس انطونيوس طرد الشياطين في كورة الجدريين (متى ٨: ٣١) ويقول: "إن الشيطان لا يملك السلطة على الخنازير، فكم بالحري على الذين هم مخلوقون على صورة الله" (فقرة ٢٩ ص ٤٩).

المسيح رأس الخلاص العظيم Ⲟⲩⲛⲓϣϯ Ⲛⲕⲉⲫⲁⲗⲉⲟⲛ:

الرأس هو بداية تكوين أعضاء الجسد (كولوسي ٢: ١٩)، وبداية معرفتنا بالرب هو:

– اسم الخلاص الذي لربنا يسوع المسيح.

ورشم الصليب هو عطية الرب يسوع لنا:

– ربنا يسوع المسيح قد أعطى علامة لعبيدة

الذين يخافونه

لكي يهربوا من وجه القوس (الذي يصوب سهام التجارب).

ولاحظ تشديد الابصالية على خوف المؤمنين من المسيح وحده، هو ذلك الخوف المقدس، والخوف من الابتعاد عنه، وترك ينبوع الحياة، وإهمال محبة المخلص، الالتصاق بالعالم وترك المسيح الرب. وحسب ترتيب الابصالية قوة علامة الصليب:

- تسد أفواه الأسود
- تطفيء قوة النار
- تخرج الشياطين.

ثم الأهم كما نرى من سيرة الأنبا انطونيوس الكبير

"ربنا يسوع المسيح قد اعطى علامة لعبيده
الذين يخافونه
لكي يتسلطوا على اعدائهم

ثم شفاء كل مرض. وبعد الالتصاق بعلامة الصليب عطية الرب لنا:

"من أجل هذا نمجد ربنا يسوع المسيح
مع أبيه الصالح والروح القدس".

لأن علامة الصليب تُرشم باسم الثالوث فهو تقودنا إلى الايمان الصحيح؛ ولأن الابصالية هي لاسم ربنا يسوع المسيح، والمناسبة هي يوم الصلبوت (يوم الجمعة)؛ تقول الابصالية في حبكة رائعة:

- "هذا هو اسم الخلاص الذي لربنا يسوع
وصليبه المحيي الذي صُلب عليه".

فلا فصل بين الصليب واسم الخلاص، ولعل لدينا هنا تلك الصلة اللغوية بين أول حرف في اسم المسيح X وعلامة الصليب + أو التاء حسب شهادة ترتليان وأوريجينوس.

بقية الابصالية هي "عسل الآباء" "وعسل الخلاص" (عبارات القمص مينا المتوحد قداسة البابا كيرلس السادس) والتعليق عليها يفسد حلاوة العسل.

الابصاليات كمنهج لاهوتي كامل، ومناهج التربية الكنسية:

كانت هذه المسيرة القصيرة ضرورية من أجل اكتشاف منابع الأرثوذكسية، فلا اعتذار للقارئ؛ لأننا أمام أزمة في التعليم صنعها التعليم المعاصر الوافد إلينا من خلال تعليم تلاميذ سبرجن المعمداني وغيره. ونحن هنا لسنا بصدد محاكمة هؤلاء لأن التاريخ له أكبر محكمة لا يفلت منها أي مذنب، الذي يهمنا هنا هو الخطوط الأساسية وهي:

أولاً: تجنب الفصل بين الشخص وهو الرب يسوع، والصليب. ولاحظ الأدب الرفيع والرقيق في اسم "الصليب المحيي"، والاسم هو "اسم الخلاص"، وبالتالي أي تعليم عن إلوهية المخلص والرب لا يغرس في الذين يسمعون ضرورة تلاوة الإبصاليات هو تعليم له جلد الارثوذكسية ولحم وعظام البروتستانتية.

أذكر أنني كنت في عشية عيد مار مينا – طالب في السنة الأولى في الكلية الاكليريكية – وكان معي كتاب تراتيل نشرته إحدى دور النشر الأرثوذكسية، ورأى أبي القمص مينا المتوحد الكتاب وسألني عنه، ثم طلب أن يستعيره، وكان هذا الطلب سبب دهشة، ولكنه بعد أسبوع تقريباً كنت أيضاً في عشية يوم الرب، وقبل أن أنصرف أعاد القمص مينا الكتاب وقال لي: كتاب كويس فيه ذهب ورمل وحصى وزبالة من كل نوع لا تستعين به حتى تتعلم الإفراز، ثم أضاف: قرأت ترتيلة يبدو شكلها حلو: "خلني قرب الصليب"، ثم قال: ونحن يا حبيب أبوك لسنا بعيدين عن الصليب؛ لأننا قبلناه في المعمودية وفي رشومات الميرون ثم في القداسات، ولذلك نرشم علامة الصليب، وأبوك لابس الاسكيم؛ لأن الرهبان "لُبَّاس الصليب". وعلَّق على ترتيلة أخرى هي: "من دم الفادي الحبيب"، وقال: إن هذه الترتيلة لا تذكر دم الخلاص الذي لنا على المذبح في كأس عهد الرب يسوع، فكيف أرتِّل لدم المسيح، ولا أهتم بأن أذكر أنني أتناوله كل يوم. الترتيلة دي تبعدك عن القداسات وعن روح الكنيسة، فلا ترتِّلها. وجال في الكتاب، وقد وضع خطوطاً حمراء كثيرة على تراتيل كثيرة وقال لي: دي شكلها من بره حلوة ولكن قلبها فاضي.

ثانياً: يظل الثالوث هو أساس التسبيح، ويظل التسبيح هو عطية الله، ويبقى أن نلاحظ أن الإيمان واستلام العطية هو الذي يعطي لنا قوة رشم الصليب، واستدعاء

الاسم بقوة الروح القدس الذي قبلناه.

إن ما يسمى "الطقس"، أي "الترتيب" هو ترتيب حسب التدبير "الايكونوميا"، ولذلك يجب أن نعود إلى الحياة الكنسية، سواء بدراسة الكتاب المقدس، أو التاريخ الكنسي، أو اللاهوت نفسه، عودة تصبح فيها صلوات الكنيسة هي الأساس الذي نبني عليه؛ لأن الصلوات هي "اللاهوت مُسبَّحاً" ومُرتَّلاً، وهو هنا الاحتفال بفرح إلهي يسكبه الروح القدس على ما نسبِّحه في صلواتنا؛ لأننا عندما نصلي نعود إلى الشركة.

أخيراً: الصلوات تجمع الكنيسة الجامعة كلها تاريخاً ونضالاً وقداسةً حقيقية وفهماً أصيلاً لأسفار الوحي المقدس، ثم نماذج السلوك النقي، وكلها – أي الصلوات – صادرة من ينبوع واحد وهو اتحادنا بالثالوث القدوس الذي ثبَّته الرب يسوع المسيح وأعلنه لنا بالروح القدس ونحن نشترك في حياة الثالوث في الابن وبواسطة الروح القدس.

أبانا البابا كيرلس السادس،
صلِّ لأجل الكنيسة التي خدمتها،
لكي يعيد إليها راعيها الجديد الأنبا تواضروس الثاني
قوة وزخم الحياة الليتورجية التي عرفناها فيك،
وأن يقبل وديعة الأنبا شنودة الثالث في فردوس النعيم.

الفصل السادس

التجسد الإلهي الذي أعلن لنا كل شيء

عندما ينجرف العقل وراء أفكار مجردة، عندئذٍ يسعى العقل إلى التجريد لكي يسيطر على ما يفهم، ويحتوي على ما يدرك. وتجريد الفكر محصور في الكلمات، والعيب ليس في الكلمات، بل في الإدراك وفي مستوى العلاقة نفسها مع الشخص أو مع الأشياء التي ندركها ونريد أن نتعامل معها.

على سبيل المثال كلمة: "أنا"، هي في كل لغات الدنيا لا تزيد على ثلاثة حروف، ولكن هذا الضمير "أنا" يقبع خلفه بحرٌ من مستويات فكرية وشعورية تفوق عدد الحروف الثلاثة بما لا يمكن حصره عددياً.

"التجسد" كلمة مجردة و"التأنس" مثلها معرَّضَةٌ بدورها للتجريد، أي أن يتحول الفعل والفاعل معاً إلى فكرة تجرد الفعل والفاعل من كل علاقة ممكنة؛ لأن العقل يكتفي بالإدراك ولا يريد أن يسمو إلى "التكليف" أو الممارسة التي لا يمكن فصلها عن الإدراك إلَّا في حالات الغضب والكراهية حيث يتحول الشخص إلى رقم كما في معسكرات الاعتقال، أو رتبة تفرض الهيمنة في المؤسسات العسكرية الصارمة، أو حشرة يجب القضاء عليها.

ولكن الحس الروحي المدقق لا يكتفي بذكر "التجسد"، ولا يقبل أن يتحوَّل الكلمة الخالق والمخلص إلى مجرد فكرة.

الترتيب حسب التدبير:

هل غاب من الوعي المعاصر أن الأسبوع يبدأ بقيامة الرب من الأموات؟ لا أريد أن أجيب على هذا السؤال لأن الإجابة سلباً تعني ضياع ترتيب الحياة المسيحية حسب

التدبير، فالأحد أو بالحري يوم القيامة هو "أول الأسبوع" (متى ٢٨: ١ مر ١٦: ١ – ٩) كما تذكر الأناجيل، وحسب التسليم الكنسي باكر في أحد السبوت، أو سبت السبوت، أي السبت الأخير قام الرب من بين الأموات معطياً للإنسانية السبت العظيم، أي الراحة التي وعد بها الرب حسب القراءة الدقيقة لرسالة العبرانيين (٤: ١ – ١٠)؛ لأن الله تكلم عن يوم آخر للراحة بقيت لشعب الله (عب ٤: ٢٨)، وهو ما تدعونا إليه رسالة العبرانيين أن "نجتهد لكي ندخل لتلك الراحة" (عب ٤: ٩).

وأول الأسبوع هو قيامة الرب يسوع، لكن الترتيب الكنسي لا يبدأ بالقيامة رغم أن اليوم هو يوم القيامة، وإنما بالخروج العظيم وحرية العبيد في "الهوسات"؛ لكي يبدأ الترتيب بالخروج ثم يصل إلى تجسد ابن الله في التسبيح المعروف باسم والدة الاله. والاحتفاظ بالاسم اليوناني / القبطي "ثيئوطوكية" هو إبعاد الوعي عن التجريد، وذلك بذكر دائم في كل أيام الأسبوع بالحقيقة الماثلة أمامنا، وهي أن الرب فعلاً تجسد من البتول والدة الاله.

وتظهر قوة "الثيئوطوكيات" في حشد الرموز من العالم المادي المنظور .. فالقديسة مريم هي:

- "مدينة أورشليم".
- "المنارة الذهب".

ولكن يجب أن ننتبه إلى الفواصل اللاهوتية بين الرموز، وهي على سبيل المثال:

- هي صهيون التي "أتى **وحلَّ** فيها حتى **خلَّصنا**".

وهي بداية **الحرية الأبدية**.

* المنارة الذهب، ثم النبوة من اشعياء.

* اورشليم مدينة إلهنا، ولكنها مركبة الكاروبيم التي تحمل عرش اللاهوت، ثم نبوة حزقيال.

وبعد شرحٍ مسهب لخيمة الاجتماع – القبة – تابوت العهد – قسط المن – المنارة – المجمرة – عصا هارون .. هذه رموز تجسد ابن الله، ومن ثمَّ يأتي تأكيد تجسد ابن الله الذي تم فعلاً في الواقع الانساني الذي تحياه الكنيسة:

– "مرتفعة أنت أكثر من الشاروبيم ومكرمة أكثر من الشاروبيم".

والسبب:

– "ابن الله الهنا ولدته".

ثم سبب وجودنا في الكنيسة:

– "نمجده كإله ونسجد له".

ولكن يبقى سر التجسد محفوظاً:

– "الساكن في النور الذي لا يُدنى منه".

هذه هي حقيقة ابن الله الأزلي:

– "أظهر قوته أو آياته كيف أرضعته اللبن".

الترتيب حسب التدبير يفصل بين العهدين:

لقد تحولت خيمة الاجتماع بكل ما فيها إلى ما يشير إلى تجسد ابن الله من البتول، وبالتالي لم يعد للعهد القديم ذات مكانة العهد الجديد. لنفس السبب لا تقرأ كل الكنائس الأرثوذكسية العهد القديم في خدمة سر الإفخارستيا إلَّا في ترتيب أسبوع الآلام من أجل تدبير معمودية الموعوظين الذين كانوا يعمَّدون في خدمة عيد القيامة قبل نقل خدمة سر المعمودية إلى "أحد التناصير".

وتأكيداً لما نقول، يكفي أن يلقي أي أرثوذكسي نظرة فاحصة على ما يُعرف باسم الشيرات، وهي خاتمة ثيئوطوكية يوم القيامة، يوم الأحد، فكل عبارات "السلام" التي تبدأ بآدم حتى اليشع النبي تُختتم بـ "أم يسوع .. التي شهد لها جميع الأنبياء"؛ لأن مجد "أم يسوع"، وهو لقب سابق على اجتماع مجمع أفسس المسكوني الثالث ٤٣١ هو تأكيد على ما سبق وقلناه من إنهاء خدمة العهد القديم، ولا توجد كلمات أقوى من هذه الكلمات لأن القديسة مريم هي:

– قدس الأقداس ..

– تابوت العهد المصفح بالذهب، وهو الله الكلمة الذي صار إنساناً بغير افتراق، والعبارة لها صدى عند القديس كيرلس الكبير:

"خيمة الاجتماع التي أراد الله أن تقام في البرية ترمز إلى عمانوئيل في أشياء كثيرة. قال الله إله الكل لموسى .. "اصنع أنت من خشب لا يسوس تابوتاً .. وتغشيه بالذهب النقي من الداخل ومن الخارج تغشيه (خروج ٢٢: ١٠ – ١١)، فالخشب الذي لا يسوس هو رمزٌ للجسد الذي لم يفسد .. أمَّا الذهب .. فهو يشير إلى جوهر اللاهوت الفائق .. لأن الله الكلمة اتحد بجسد مقدس .. الخشب صار غنياً بمجد اللاهوت، لكنه لم يفقد خصائصه كخشب" (شرح تجسد الابن الوحيد، فقرة ١١ – ص ٢٢ – ٢٣ تعريب د. جورج بباوي).

لكن حتى لا نسقط في بئر عقلي بلا قرار، تقول الثيئوطوكية عن تابوت العهد وجسد الله الكلمة:

– "هذا الذي أخذه منك أيتها الغير الدنسة،

واتحد به كأقنوم"،

لكن هنا لا يقف التسبيح عند مجرد ذكر حقيقة، بل:

– "الله الكلمة الذي تجسد منك أيتها التي بلا عيب،

بغير تغيير صار تطهيراً لخطايانا".

وحتى "قسط المن في تابوت العهد"، لا يقف التسبيح عند ذكر الحقيقة، بل يصل إلى الخبرة السرية المعاشة:

– "خبز الحياة الذي نزل لنا من السماء أعطى الحياة للعالم".

والكلمات لا تفصل بين التجسد والإفخارستيا؛ لأن هذا الفصل هو عمل العقل غير المستنير السابح في فضاء التجريد، ولذلك:

– "أنت يا مريم حملت في بطنك المن العقلي الذي أتى من الآب".

لأن أحد استعلانات تجسد الكلمة هو إعلان أبوة الله للإنسان (راجع على سبيل المثال تجسد الكلمة ١١: ٢ – ١١: ٣ – ١٢: ١ – ١٦: ٢).

النور غير المُقتَرَب منه:

"هو النور غير المدنى منه. الإله الحق من الإله الحق" (عبارة من قانون الإيمان النيقاوي) الذي تجسد منك بغير تغيير "ظلَّ في تجسده النور غير المقترب منه وغير المدنى منه"، ولكنه "بظهوره أضاء علينا نحن الجلوس في الظلمة وظلال الموت"، لكن الاستنارة تجد غايتها: "وقوَّم أرجلنا إلى طريق السلام بشركة اسراره المقدسة".

النور لا يظل كما هو نوراً أزلياً لا يمس حياة المائتين من البشر؛ لأن المنارة التي أعطت النور قديماً في خيمة الاجتماع جاء "في بطنك يا مريم"، وهنا الخطاب موجهٌ إلى مريم، فهي ليست خارج الكنيسة، بل هي في الكنيسة "على يمين الملك يسوع ربنا"، وهو "شمس البر ولدته وشفانا من خطايانا" (نبوة ملاخي ٤: ٢). وهنا لا يمكن عزل الشفاء عن أهداف تجسد ابن الله، لأن الله شفى جراحات المائتين بجرح الموت.

أشرق جسدياً من العذراء بغير زرع بشر لكي يخلصنا:

الخلاص هنا كان ولا يزال انعتاق الإنسانية في شخص حواء بسبب تحنن الرب ومحبته للبشر، ولاحظ قوة كلمات ثيئوطوكية الاثنين:

- "تحنن الرب من قبل محبته للبشر،
وسُرَّ مرة أخرى بعتقها.
أشرق جسدياً من العذراء".

ثم:

- "سُرَّ أن يخلصنا".

فالخلاص هو تحنن ومسرة الله الآب، ولاحظ كيف تعيد القطعة الخامسة كلمات (يوحنا ٣: ١٦).

- "افرحوا وتهللوا يا جنس البشر.
لأنه هكذا أحب الله العالم (حسب القبطي: بهذا الشكل أو الأسلوب أحب الله)
حتى بذل ابنه الحبيب عن المؤمنين به لكي يحيوا إلى الأبد".

البذل يعطي الحياة الأبدية، فماذا نقول لتلاميذ العصر الوسيط؟ هل قرأتم كلمات كنيستكم؟:

- "لأنه غُلب من تحننه" (ولم يغلب من غضبه).
- "أرسل لنا ذراعه القوية أو العالية.
أشرق جسدياً من العذراء".

مجيء ابن الله الينا متجسداً هو أساس الخلاص، هو إشراق النور والحياة، ولذلك في القطعة السابعة لا تفصل الارثوذكسية بين التجسد وبين تجديد آدم:

- "السلام لبيت لحم.
المدينة الثانية التي ولد فيها آدم الثاني".

وحسب تعبير القمص متى المسكين، وهو على حق، فإن "بيت لحم مسقط رأس الإنسانية المفتداة"؛ لأن آدم الثاني ولد فيها، ولاحظ قوة التعبير:

- "لكي يرد آدم الإنسان الأول
الترابي
إلى الفردوس".

لكن ذلك كان ولا يزال بالقضاء على الموت، والتعبير القبطي "يحل"، أو "يفك"، أو "يمحو" قضية الموت:

- "ويحل قضية الموت،
أنك يا آدم تراب،
وإلى التراب تعود".

وما أجمل ما حدث من استعلان المحبة الإلهية، فهو ليس دفع ثمن أو ديون:

- "لأن الموضع الذي كثرت فيه الخطية،
تفاضلت (ازدادت فيه نعمة المسيح).

والمرد:

- "أشرق جسدياً" (راجع نفس التعليم عند القديس اثناسيوس،
ضد الأريوسيين ٢: ٦٧).

في القطعة الثامنة:

- "حل (الحاجز الذي كان يفصل بين اليهود والأمم،

وقتل العداوة بالكمال).

القتل لم يقع على المسيح؛ لأن المسيح لم يُقتَل، بل ذُبِحَ، ولكن القتل حدث للموت أو حسب تعبير أثناسيوس العظيم، "أمات الموت" (تجسد الكلمة ٣٠: ٢٢). والذبح هو الإرادة الحية القوية لدى الابن في تقديم جسده: "بذبائح ومحرقات وذبائح للخطية لم تُسر .. هنذا آجيء .. لأفعل مشيئتك يا الله .. بهذه المشيئة نحن مقدسون بتقديم جسد يسوع المسيح (عب ١٠: ٦ - ١٠)، والقتل هو قوة القاتل، بل والاعتداء عليه، ولكن الرب الذي قتل العداوة هو خالق الكل.

- "قتل العداوة بالكمال،

وبقوةٍ

مزَّق كتاب العبودية التي لآدم وحواء وحررهما".

ولكن لا تزال حواء في انتظار من يحررها من رباطاتٍ وُضِعَت عليها في عصور التخلف لكي تبقى أسيرة مجتمع الذكور الذي يتحصن في شريعة موسى .. غفر الله لهم.

بإرادته ومسرة أبيه والروح القدس أتى وخلَّصنا:

"نعمة واحدة من الآب بالابن في الروح القدس" (القديس اثناسيوس الرسالة الأولى إلى سرابيون عن الروح القدس فقرات ٢ — ٢٨ — ٣١).

"فعل الثالوث هو واحد" (سرابيون ١: ٣١).

"ما يُعطى إنما يُعطى بالثالوث" (سرابيون ١: ٣١).

النعمة والهبة تُعطى في الثالوث من الآب بالابن في الروح القدس، وكما أن النعمة المعطاة لنا هي من الآب بالابن، هكذا فإنه لا يكون لنا شركة في العطية إلَّا في الروح القدس؛ لأننا حينما نشترك فيه تكون لنا محبة الآب ونعمة وشركة الروح نفسه" (سرابيون ١: ٣٠). وعمل الثالوث الواحد هو أساس التسبيح، فقد نزل وأعطى الله الكلمة، الشريعة القديمة على جبل سيناء (القطعة الرابعة من ثيئوطوكية الثلاثاء).

لكنه نزل في التجديد:

– "نزل عليك أيتها الجبل العاقل أو الناطق بوداعة ومحبة بشرية".

النزول هو التواضع الالهي الذي لم يأت من ضرورة فُرِضَت على الله، بل من الوداعة ومحبة بشرية" جعلته:

– "مساو لنا كامل وبقى إلهاً ..

لكي يحل زلة آدم ويخلص مَن هلك،

ويصيره مواطناً في السموات".

كل هذا يُقال عن إرادة الابن ومسرة الآب والروح القدس .. ولكن مسرة الروح القدس غابت من لاهوت العصر الوسيط الذي لم يجد في تجسد الابن أي فرح ومسرة للروح القدس كأنه فعل شيئاً عن اضطرار وليس عن محبة واحدة غير منقسمة.

تطلع الآب من السماء فلم يجد من يشبهك: "أرسل وحيده أتى وتجسد منك":

هكذا في ثالوثية العمل الإلهي تشرح ثيئوطوكية الأربعاء تجسد ابن الله وخلاصنا:

– "الآب صنعك،

الروح القدس حلَّ عليكِ؛

لأنكِ ولدت الكلمة الحقيقي ابن الآب".

وفي فخامة تراها عند أمبروسيوس، وأفرام السرياني، بل تعود إلى هيبوليتوس:

– "مريم هي الفردوس الناطق أو العاقل".

فالمسيح وُلِدَ في هذا الفردوس الجديد، وُلِدَ من "العبدة" التي صارت الأم (القطعة الخامسة)، وفي دقة لاهوتية للسر المجيد، سر تجسد الرب:

– "غير المتجسد تجسد ..

الكلمة تجسم،

غير المتبدئ، ابتدأ

غير الزمني صار زمانياً".

هكذا التحول، ليس في طبع الكلمة، وإنما هو تحول في علاقة الله بالإنسانية لأن الإنسان هو الجسداني وهو الذي له ابتداء وهو الذي يحيا تحت الزمان.

ولا تقف هذه القطعة الفخمة عند جمع هذه الايقاعات الشعرية:

– "غير المدرك لمسوه (١يوحنا ١: ١ – ٣).

غير المرئي رأوه (١تيمو ٣: ١٦).

يا لقوة المحبة الإلهية للإنسانية:

– "ابن الله الحي صار بشراً بالحقيقة".

وهكذا لا تغيب وحدة اقنوم الله الكلمة المتجسد، فهذه هي كنيسة القديسين التي ناضلت عن الايمان "يسوع المسيح هو هو أمس واليوم والى الأبد" (عب ١٣: ٨):

– "أقنوم واحد نسجد له ونمجده؛

لأن

الآب تطلع من السماء وأرسل وحيده وتجسد".

التسبيح ليس مجرد شكر وحمد، بل هو شركة أيضاً:

تحتاج حياتنا إلى سنوات لكي ننمو وندرك أن ما نقوله في صلواتنا هو الواقع الماثل أمامنا، فنحن لا نصف هذا الواقع "لأن غير الزماني صار زمانياً وصار بشراً بالحقيقة"؛ لأن بشريتنا هي الفصل الناقص في الإنجيل، الذي سوف يكمل يوم مجد الإنسانية عندما يُستعلن الرب يسوع من السماء ويغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده" (فيلبي ٣: ٢١)، ولذلك التسبيح هو شكر على ما أخذناه، على ما هو ماثل أمامنا، هو نقل الوعي بالكلمات، لكن الكلمات لا يمكن فصلها عن الواقع.

ما هو هذا الواقع الحي الذي تشير إليه الصلوات؟

إن نظرةً فاحصةً ومتأنية على ثيئوطوكية الجمعة – وهو يوم تذكار صلبوت الرب ولذلك هو صوم ما عدا أيام الخماسين – تكشف لنا عن الكيفية التي تنقل بها إلينا تسبحة الإله المتجسد، هذه العلاقة الحية الكيانية التي تعلو على الألفاظ.

لاحظ أن الصلوات تُقال وأيقونة القديسة مريم تكون على يمين الملك على حجاب الهيكل. وعلينا أن نلاحظ أن الاسم "الحجاب" ليس له علاقة بالعهد القديم؛ لأن الاسم العبراني هو "ستارة"، لكن "الحجاب" ورد في الرسالة إلى العبرانيين: "لنا أيها الأخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع طريقاً كرسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أي جسده" (١٠: ١٩)؛ لأن جسد الرب أخفى لاهوته، وهو أحد أسرار التدبير حسب قول الشهيد أغناطيوس الأنطاكي (١١٠ ميلادية): "ثلاثةُ أسرارٍ أُخفيت عن رئيس هذا العالم: الميلاد البتولي الذي تم في صمت، وحجاب الهيكل هو الذي يُخفي السر والذي يجب أن يجتازه المؤمن بإدراكٍ آخر غير ذلك الإدراك العقلي الآني الذي يتكون من الرؤيا الحسية، بل الإدراك المستنير بالروح القدس الذي يعرف أن الهيكل فيه" حضن الآب"، وفيه عرش الثالوث، ومكانٌ يستقر فيه رب المجد، ولكن هذه جميعها أسرار".

أمَّا التسمية بـ "حامل الأيقونات"، فقد جاءت من روحانية الروم الأرثوذكس.

إذن، أمام الهيكل يُقال هذا التسبيح:

– "مباركةٌ أنتِ في النساء .. يا مريم أم الله؛

لأنه قد أشرق لنا منكِ شمس البر،

والشفاء في جناحيها؛

لأنه الخالق".

فالقديسة مريم هي "ملكة" في الكنيسة، وهي حاضرة معنا في كل صلواتنا، حاضرة في المسيح وهي شهادة حية لتجسد الله. ولكن إذا توقف التسبيح عند هذا الحد؛ انحدر الوعي في مجالات الفكر المتنوعة، ولكن التسبيح يستمر لكي يتوقف أمام الحقيقة الحية الماثلة:

– "هو أخذ الذي لنا،

وأعطانا الذي له".

وهذا هو سبب التسبيح:

– "نسبحه ونمجده ونزيده علواً".

فقد نال الذي يسبح ما يجعله يقول: "نسبحه ونمجده ونزيده علواً".

ليست هذه فكرة طارئة عبرت بعقل الكاتب، بل لنتابع باقي قطع ثيئوطوكية الجمعة، يوم الصلبوت:

– "الذي هو جالس على الشاروبيم،
أتى وتجسد منك".

ثم:

– "اتحدنا به من قبل صلاحه".

وهنا هل يمكن أن لا يكون للأفخارستيا مكان خاص في انطلاق التسبيح؟

– "الكائن قبل الدهور،
أتى وتجسد منكِ،
عتيق الأيام،
وُلِدَ من بطنك".

هذه حقيقة تُعاش لأن باقي القطعة الثالثة تقول فوراً:

– "هو أخذ جسدنا،
وأعطانا روحه القدوس،
وجعلنا واحداً معه من قبل صلاحه،
هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له".

وفي يوم الجمعة، يوم الصلبوت، تقول الثيؤطوكية:

– "ثمرة بطنك أتى وخلَّص المسكونة،
ونقض العداوة عنَّا،
وقرر لنا سلامه".

وبعد تأكيد العمل الإلهي تقول:

– "من قِبَل صليبه وقيامته المقدسة،
ردَّ الإنسان مرة أخرى إلى الفردوس،
هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له ..".

فالكنيسة هي فردوس الله (القديس اثناسيوس ضد الأريوسيين ١: ١). وعبارة

المسيح للص اليمين: "اليوم تكون معي في الفردوس (لو ٢٣: ٤٣)، هي لنا؛ لأننا مغروسين في الفردوس العقلي أو الناطق، وهو ما مر بنا، ولذلك صارت حقيقة تجسد ابن الله هي "الصنارة العقلية التي تصطاد المسيحيين، وتعلمهم السجود للثالوث المحيي.

ثيئوطوكية السبت، وثيؤطوكية الأحد:

تقول ثيؤطوكية السبت:

– "السلام لك يا ممتلئة نعمة.

السلام لك يا من وجدت نعمة.

السلام لك يا من ولدت المسيح،

الرب معك".

أحد مميزات صلواتنا القبطية هي الكلمات التي ترد في النهايات كلها سواء كانت الشكر أو التمجيد أو التسبيح؛ لأن نهاية كل قطعة تحمل ختم صحتها وعلامة أرثوذكسيتها، فتحية أو سلام رئيس الملائكة للقديسة مريم ليست حدثاً انتهى بعد أن سجَّله القديس لوقا (١: ٣٨)؛ لأن نهاية تحية رئيس الملائكة – كما عبَّرت عنها الثيؤطوكية – هي:

– "قدَّمت لنا الله محمولاً على ذراعيها".

ولم يكن هذا حدثاً عابراً، بل:

– "تفرح معك كل الخليقة صارخةً قائلةً:

السلام لك يا ممتلئة نعمة الرب معك".

فقد ولدت المسيح، وهو ثمرة حياتها:

– "لأن من قِبل ثمرتك؛ أدرك الخلاص جنسنا،

وأصلحنا الله مرةً أخرى من قِبل (بسبب) صلاحه،

السلام لك ..." (القطعة الأولى والثانية من ثيؤطوكية السبت).

ولاحظ أن السبت عشية يوم القيامة، يوم الأحد:

– "يتهلل الفردوس بمجيء الحمل،

الكلمة ابن الآب الدائم إلى الأبد؛
ليخلِّصنا من خطايانا،
هوذا الرب وُلِدَ منك أيتها المباركة الكاملة؛
ليخلِّص العالم الذي خلقه حسب رأفاته".
(القطعة السادسة والسابعة).

لقد جاءت الولادة بعتق المسكونة "من لعنة حواء" (راجع لُبش السبت)، وحقق تجسد ابن الله – ولاحظ دقة وجمال الكلمات:

– "بسببك أيضاً،
صرنا مسكناً للروح القدس،
الذي حلَّ عليك وقدَّسك" (لبش السبت).

فالروح نفسه الذي حلَّ على القديسة مريم هو نفسه الذي يحل علينا، تلك الحقيقة التي عميت عيون محبي الشجار عن رؤيتها، فالحلول على البتول هو للتجسد، أمَّا الحلول على المؤمنين، فهو للتبني (غلا ٤: ٤).

الفصل السابع

الشركة التي تسبق الكلمات

الشِّجار حول معاني الكلمات، وهذا النص، وتلك العبارة، هو دليل فراغ روحي هائل يجعل المتشاجرون يعجزون عن إدراك ما وراء الكلمات. ونحن نعرف ويجب أن يكون معروفاً أيضاً أن الوجود يسبق كل الكلمات، ولذلك يجب استيعاب الوجود وفهمه قبل أي حوار عن الكلمات. هذه القاعدة الذهبية وضعها القديس أثناسيوس العظيم في رده على الأريوسية. تبدو فكرة بسيطة جداً ولكنها مرهفة مثل سيفٍ حاد جداً يقطع الطريق على كل شجار.

"أبوة الله الآب أزلية ..". هذا هو وجود أو كينونة الآب، فهو ليس آباً نال صفة الأبوة في الزمان، بل أُعلنت هذه الصفة في الزمان، ولكنها سابقة على الزمان. إذن، الوجود الأزلي سابق على استخدام الكلمة؛ لأن الكلمة – وهذه أحد اللمحات الإلهية في قلب أثناسيوس العظيم – لم تحدد الوجود، ولم تكن هي السبب في الأبوة. فإذا أدركنا الأبوة أولاً وأدركنا أنها أزلية؛ تعذَّر علينا أن نعترف بأي اعتراف آخر يمس أزلية الابن، لأن الآب لا يمكن أن يكون آباً إلَّا في وجود الابن (راجع ضد الأريوسيين ٢: ٣).

إذن، فقد سبق التجسد كل كلمات الأناجيل الأربعة، لذا فـ "الكلمة صار جسداً" (يوحنا ١: ١٤)، هي شهادة تجيء بعد تجسد الرب. وأفظع الأخطاء هي أن يظن أحد أن هذه العبارة "الكلمة صار جسداً" هي التي زرعت تجسد ابن الله في الوعي والتاريخ.

النَّص والإنسان:

لعل أفدح الأخطاء، أن تضع النصوص – مهما كان مصدرها – تحديداً للإنسان، وجوده، وحياته ومصيره النهائي .. وفي تاريخ البشر نجد أن العلاقات هي التي خلقت القوانين والدساتير، وما العودة إليها إلَّا فقط في حالة الاختلاف على علاقة أو حقوق أو واجبات. فالدستور لا يخلق الوطنية، والقانون – مهما كان – لا يؤسس العدل والأمانة؛ لأن هذا إن لم يكن كامناً في القلب والضمير، فما أسهل الالتفاف حول النصوص "ولوي ذراع" النصوص على من تتوفر لديه القدرة والقوة.

فإذا كان الوجود يسبق الكلمات، وكان التجسد قد سبق الأناجيل، إذن فقد صارت العلاقة الشخصية مع ما هو كائن – والذي يشهد له النص – هو ما يجب أن نفكر فيه. فالمسيحية الأرثوذكسية ليست ديانة صوت وكلام وقراءة كتب مقدسة، بل لعل الأرثوذكسي الحي يجد أن الكتب المقدسة تُقرأ في ممارسة السرائر؛ لكي تفتح كلمة الله، الوعي وتنير العقل لكي يدخل المؤمنون في شركة مع الله الثالوث في السرائر، لا سيما سر الشكر.

ومن أفدح الأخطاء أيضاً ما ترسخ في وعي الثقافة الشعبية من أن الصلوات هي التي تُسلِّم لنا السرائر، بينما السرائر هي تسليم المسيح نفسه بالروح القدس، وما الصلوات إلَّا عودة الوعي، وهي حالة الانتباه التي يجب أن يعود إليها المصلي لكي يدخل ما هو كائن أمامه ويشترك فيه.

سمعت قصة راهب كان يعيش على مستوى الرؤيا الشخصية، وكان "روتين" الحياة الديرية يضايقه. وفي يوم الأحد أثناء خدمة القداس الإلهي، خرج هذا الراهب من الكنيسة واتجه إلى أكبر حنفية مياه خارج الكنيسة، ووضع فيها خرطوماً وفتح حنفية المياه إلى آخر ما يمكن أن تصل إليه، وسحب الخرطوم إلى داخل الكنيسة، وانتظر حتى استدعاء الروح القدس، وفتح المياه على كل المصلين وهو يقول: "الروح يملأ المسكونة ونحن جئنا إليه. هو جاء إلينا يوم العنصرة وبقى معنا". كان الإحساس بأن الروح القدس غائب حتى يُستدعى يضايقه، ولذلك رش المياه على الكل صائحاً: "الروحُ معكم أكثر من هذه المياه". حقيقة غابت تحت وطأة الروتين.

الكلمة قدَّس الجسد الإنساني الذي أخذه من القديسة مريم:

كتب أثناسيوس العظيم:

"هو إلهٌ في الجسد، وخالق وحافظ لكل ما خلق، ولأن البشر لهم أجساد وهذا هو كيانهم الإنساني، جاء كلمة الله وصار إنساناً لكي يقدِّس الجسد ...

وبالتالي إذ قد صار إنساناً،

فقد دُعي (الرب) أخاً لنا" (ضد الأريوسيين ٢: ١٠).

وتقديس الجسد له عدةُ معانٍ: هو وصول الجسد الإنساني إلى عدم الموت، أو الخلود بالقيامة، وهو الموضوع الذي يشغل أهم فقرات تجسد الكلمة: ["جسد الحياة عينها (٢١: ٧) — "نال الجسد قوة منه" (٢١: ٥) – "وجوده في جسد بشري معطياً الحياة له" (١٧: ٢) – "قدس الجسد لأن حلوله في الجسد لا يدنس الكلمة بل بالعكس فهو قد قدَّس الجسد" (١٧: ٢٥)].

* "تجسد الابن لكي يتحد الانسان بالله" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٧)، فقد جاء الابن لكي "يوحِّد المخلوقات مع الله" (المرجع السابق ٢: ٦٩).

* "وبتجسد الابن تم تحرير البشر لأن اتحاد الابن بالجسد هو الذي وهب لنا الاتحاد بالله الكلمة وهو نفسه الاتحاد بالله" (المرجع السابق ٢: ٦٩).

والقضاء على الخطية — الموت — الدينونة هي إزالة موانع الاتحاد: "لن نخاف من الحية لأنها أُبطلت بواسطة تجسده، وقد أكَّد المخلِّص طردها لأنها سمعت: "أذهب عني يا شيطان" (متى ٤: ١٠) ... سنكون خليقةً جديدةً في المسيح يسوع ... لبس الجسد البشري المخلوق، لكن بعد أن يجدده كخالق يؤلِّهه في ذاته، وبهذا يُدخلنا جميعاً إلى ملكوت السموات (على مثال صورته) بنفس صورته التي تصبح مثالاً لدخولنا ملكوت السموات" (المرجع السابق ٢: ٧٠).

الليتورجية أساسها في اتحاد اللاهوت بالناسوت، وهو ما سبق اللفظ:

يقول أثناسيوس العظيم:

"كان من المستحيل على الإنسان أن يتألَّه لو أنه اتحد بمخلوق (مثله) أو لو لم يكن الابن إلهاً حقيقياً، ولكن لأن الابن هو الإله الحقيقي المتجسد، استطاع الانسان أن يقف في حضرة الآب لأن كلمة الآب الحقيقي لبس الجسد" (المرجع السابق ٢: ٧٠).

إذن فإلوهية الابن هي أساس اتحاد الانسان بالله "لو كان الابن مخلوقاً لظل الانسان مائتاً كما كان قبلاً حيث أنه لم يتحد بالله" (ضد أريوس ٢: ٦٩). فالمخلوق يعجز والسبب ليس في كونه مخلوقاً، وإنما لأن ينبوع الوجود والحياة هو خاصٌ بالله، لا يمكن لأي مخلوق أن يرتاده أو يأخذ منه، ولذلك يقول أثناسيوس العظيم إن الانسان "هو في حاجة لمن يوحِّده بالله" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٩)، ولا تملك الخليقة أن تعطي الحياة الأبدية بنفسها (المرجع السابق ٢: ٦٩)، وهو البقاء الدائم الذي لا تملكه الطبيعة المخلوقة. لكن جاء الابن وتجسد لكي "يكمِّل ويعيد بناء أو تأسيس الجنس البشري كما كان في البدء". ولم يكتف بذلك، "بل بالحري أضاف نعمةً أعظم من النعمة الأولى"، فقد كانت نعمة الخلق حسب الصورة تملك حرية الاختيار، ويمكن أن تميل إلى إحدى الجهتين (الخير أو الشر) حسب شرح مطول في تجسد الكلمة الفصول ٤ – ٦. وسقط الانسان، وكان يمكن أن يعود إلى الفناء لأنه حسب الطبيعة فانٍ (تجسد الكلمة ٤: ٥ – ٦)، وهنا ما أسهل أن يخطف أحدٌ هذه العبارة لكي يبني عليها نظرية فاسدة، لأن أي عبارة أو نص واحد – مهما كان – عندما يتحول إلى نظرية، ينتقل النص ليس فقط من السياق العام الذي هو جزء منه، بل إلى وعي القارئ صاحب النظرية الذي يريد أن يفرض رأيه ورؤيته من خلال النصوص وحدها، وهي لا تكفي؛ لأنها تترك العلاقة وبالتالي تبحث لا عن العلاقة، بل عن اللفظ، ولذلك مَن يقرأ الفصل الثامن من تجسد الكلمة يجد أن الله الخالق محب البشر لم يسمح بفناء الانسان وعودته إلى العدم:

"إذ رأى البشر العاقل يهلك، وأن الموت يملك عليهم بالفناء، وإذ رأى أيضاً أن حكم التعدي قد خلَّد الفناء في البشر .. رأى أيضاً

عدم اللياقة أن يحدث هذا للخليقة التي خلقها هو وقد صارت في طريقها إلى الفناء" (تجسد الكلمة ٨: ٢).

"أشفق على جنسنا ورحم ضعفنا وترأف على فسادنا، وإذ لم يحتمل أن يرى الموت وقد صارت له السيادة علينا لئلا تفنى الخليقة ويتلاشى عمل الله. فقد أخذ لنفسه جسداً ..." (المرجع السابق ٨: ٢).

كان "الانسان ناقصاً" (ضد أريوس ٢: ٦٦)، وكان الانسان ينقصه "الخلود والطريق إلى الفردوس" حيث شجرة الحياة الجديدة يسوع المسيح (المرجع السابق ٢: ٦٦).

تؤكد الليتورجية هذه الحقيقة التي تتجلى بشكل ظاهر في خدمة أو ليتورجية الانضمام إلى الكنيسة (المعمودية – الميرون – الافخارستيا).

"يارب طهَّرت طبيعتنا وعتقتنا بالاتحاد بأقنومك في شركة سرية" (صلاة المعمودية ص ٢٤).

وفي الحقيقة إننا في كل مرة نقول فيها: "نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر"، فنحن نعود إلى الاتحاد الأقنومي – اتحاد لاهوت الابن بالإنسانية، ولاحظ: "أرسل قوتك على هذا الزيت .. ويرد إلى الخلف كل شيء رديء"، وعندما نقول: "بابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح"، فنحن لا نؤكد فقط القوة الفاعلة لربنا يسوع المسيح، بل حضوره الذي فتح لنا الحضور في الآب.

– "أكتب أسماءهم (الموعوظين) في كتابك ..

أنعم عليهم بالنمو في الإيمان.

أعدهم هيكلاً لروحك القدوس بابنك الوحيد يسوع المسيح إلهنا".

– "يكونوا متشبهين بابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح،

صائرين واحداً معه ..".

– "أعطيت معرفتك للكائنين على الأرض".

(وهو ذات التسليم الرسولي في تجسد الكلمة: الابن الذي أعطى لنا معرفة الآب: ١١: ٢ – ١١: ٣ – ١٢: ١ – ١٦: ٢).

– "أدع عبيدك إلى نورك الطاهر يا سيدي .. عرِّهم من الانسان القديم. وجدد ميلادهم بالحياة الأبدية (هو نفس التعليم السابق عن كمال الإنسانية بالخلود والحياة الأبدية).

أملأهم من قوة روحك القدوس بمعرفة مسيحك (لأن معرفة يسوع المخلص هي التي تجعلنا نقبل روح يسوع كما أن روح يسوع هو الذي يختمنا بالروح القدس)؛

لكي لا يصيروا بعد أبناء الجسد، بل أبناء الملكوت". ولاحظ أن ذلك يتم:"بمسرة نعمة ابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا"، الكائن في الكنيسة والعامل في الأسرار "هذا الذي من قبله لك معه مع الروح القدس".

أبناء الجسد وأبناء الملكوت:

الإتحاد السري بأقنوم الله المتجسد هو أساس ذلك التحول من آدم الأول إلى آدم الثاني الرب يسوع، ولذلك يشرح القديس أثناسيوس كلمات الوحي التي عثر فيها الأريوسيون "الرب خلقني أول طرقه" (أم ٨: ٢٢):

"المسيح هو البداية التي تمت بالقيامة من الأموات، فقد تمت القيامة عندما لبس جسدنا، وقام بعد أن أسلم ذاته للموت لأجلنا، ولذلك يصبح واضحاً أن الكلمات التي قالها "خلقني أول طرقه" هي إشارة ليست إلى جوهره، بل إلى حضوره الجسدي، لأن الموت خاص بالجسد، وصار الموت صفة للجسد، فصار بذلك وجود (الابن) في الجسد، هو ذلك الوجود الذي ينطبق عليه القول "الرب خلقني أول طرقه"، فقد **خُلِقَ المخلص** حسب الجسد لأنه صار أول الذين خلقوا (آدم الثاني) من جديد وصار الجسد البشري الذي لبسه هو باكورة (جنسنا) لكي يخلق من بعده الشعب الآتي الذي خُلق (من جديد) كما قال داود "يكتب هذا لجيل آخر، وشعب سيخلق يسبح

الرب" (مزمور ١٠٢: ١٨)" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٦).

فالتحول الكياني الذي تم في ناسوت الرب هو تحولٌ من الموت إلى الحياة؛ لأن الحياة حسب الجسد هي موت وهو الموضوع الأول والأخير في كتاب تجسد الكلمة للقديس اثناسيوس. ولاحظ أن المعلم العظيم يجيب على سؤال يهود الإسكندرية في زمانه، وهو لا زال سؤالاً نسمعه منذ القرن السابع الميلادي:

"يقولون إن الله لو أراد أن يرد البشرية ويخلصها، كان يستطيع أن يفعل هذا بنطقٍ إلهي وبدون أن يتخذ الكلمة جسداً، أي بنفس الطريقة التي أوجد (خلق) البشرية من العدم في البدء" (فصل ٤٤: ١ راجع ملاحظة د. جوزيف فلتس رقم ٣ ص ١٢٨) وجاء الرد حاسماً: فقد كان الخلق من العدم في البدء بنطق إلهي وجاء الانسان إلى الوجود وبعد وجود الانسان "استدعت الضرورة علاج ما هو موجود" (٤٤: ٢ ص ١٢٨). لقد تم خلق الإنسان، ولكن "الفساد الذي حدث لم يكن خارج الجسد، بل كان ملتصقاً به". فالتجديد لا يمكن أن يتم بكلمة؛ لأن الإنسان كان موجوداً فعلاً والفساد الذي هو الموت هو الذي يبدد كيان الانسان ولكي تعود الحياة إلى الكيان المائت "كان الأمر يحتاج إلى أن تلتصق به الحياة بدلاً من الفساد حتى كما صار الموت في الجسد تصير الحياة في داخل الجسد" (٤٤: ٤)، عندما صار الموت داخل نسيج الجسد .. وصار سائداً عليه، لذلك كان من اللازم أن تصير الحياة داخل نسيج الجسد" (٤٤: ٥ لذلك **لبس الكلمة** جسداً لكي يلاقي الموت في جسده ويبيده" (تجسد الكلمة ٤٤: ٦).

لم يكن غريباً – إلَّا على آذان جيل تربى على كتب الإرساليات – أن نسمع صوت المعلم العظيم يقول إن الخلق الأول والطريق الأول الذي بدأ بآدم الأول (ضد الأريوسيين ٢: ٦٥)، قد انحرف، بل نحن "انحرفنا إلى الموت وسمعنا القول إنك تراب والى التراب تعود ولذلك جاء كلمة الله محب البشر ولبس الجسد المخلوق وبحسب مشيئة الآب لكي يُحيي بدمه (بدم نفسه) هذا الجسد الذي أماته الانسان الأول بسبب تعديه" (المرجع السابق ٢: ٦٥) وقبل ذلك يقول عن جسد الرب يسوع: "**كان هو أول ما تم تخليصه وتحريره** هو جسد الكلمة نفسه، وهكذا إذ صرنا متحدين بجسده، قد خلصنا على مثاله" (المرجع ٢: ٦١)، وتترجم ليتورجية المعمودية هذا إلى صلاة:

"نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر .. عبيدك .. لينالوا من
روح قدسك، ويمتلئوا من قوتك الإلهية ويكونوا متشبهين بابنك
الوحيد ربنا يسوع المسيح صائرين واحداً معه".

هذه ليست مجرد رؤيا عقلية عابرة، بل هي رؤيا سبقتها الحقيقة الأكبر: التحول الكياني عندما أعطى الكلمة "الكمال للجسد" (ضد الأريوسيين ٣: ٥١)، وهو "اللباس غير المضمحل" (خدمة المعمودية، ولذلك:

- "فليتصور المسيح في الذين ينالون صبغة الميلاد الجديد،
أنقلهم
أبدلهم
قدِّسهم" (خدمة المعمودية).

وهو ذات التحول الذي يحدث في الخبز والخمر حسب صلواتنا القبطية، ولكن هذا التحول هنا هو تحول الكيان الآدمي إلى كيان جديد، هو من نفس طبيعة وكيان المسيح إلهنا.